فانسان منصور مونتاي:

رحابة الإسلام وحداثة العربية

الكتاب : فانسان منصور مونتاي:
رحابة الإسلام وحداثة العربية
المؤلف : **نادر زكريا سراج**
الطبعة : الأولى 2020
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2020MO4945
الترقيم الدولي : 978-9920-627-62-7

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT DU MONDE ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

فانسان منصور مونتاي:
رحابة الإسلام وحداثة العربية

نادر زكريا سراج

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبـــة 7
مقدمة 9
نبذة وافية عن حياة مونتاي وتخصصه وتجاربه 13
تكوينه المعرفي 18
عرض موضوعي لتجاربه وكتبه وأطروحاته العلمية 24
"العربية الحديثة" 28
"تقييدات حول تكنا": نموذج تطبيقي لأسلوبه الاستقصائي..... 39
"الإسلام في أفريقيا السوداء"..... 44
"الفكر العربي"..... 49
مونتاي مفنّدًا رأي رينان في خاتمة كتاب "الفكر العربي" 52
"كفن النار"... في وداع "الشيخ الرائع"..... 55
مختارات مما كُتب عنه من قبل باحثين معتبرين..... 58
فانسان منصور مونتاي أستاذ مدرسة الإسلاميات الفرنسية..... 59
فانسان مونتاي أو المنصور باللّه الشافعي، عالم لامع ورصين 61
فانسان مونتاي، أو المنصور باللّه الشافعي (1913-2005):
آخر المستشرقين الفرنسيين العظماء 65
من الشغف بالعرب إلى الإيمان بالإسلام - صادق سلاّم 73

ثبت بيبليوغرافي مختصر بأهم أعماله وبالمواقع الشبكية التي
تخصّه أو تتعلّق به 80
مختارات من كتابات مونتاي 86
العــرب 86
أولاً. العالم العربي 87
ثانيًا. عالم العرب السياسي 90
ثالثًا. القومية العربية 95
رابعًا. أزمة المجتمع العربي 98
خامسًا. المستقبل والأمل 100
الفكر الاجتماعي 105
خاتمة الكتاب 123
ثبت بالمواقع الشبكية التي تخصه أو تتعلق به 127

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئة الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

مقدمة

" من الصعب العيش مع مونتاي. لكن لا يمكن العيش في عالم من دون أمثاله".

أندريه فونتان، رئيس تحرير صحيفة لوموند

العالـمُ المعرفي المتعدّد الأكوان، الذي يأخذ بناصيتنا فانسان منصور مونتاي في هذا الكتاب، لارتياد فضاءاته المعرفية، لا يستوي وجودُه ولا يُستطابُ العيشُ فيه من دون حضور هذا المستعرِب الفرنسي المتألّق، بحيثيّته المتفرّدة وروحه المتوثبة اللتين انطوى فيهما عالمٌ ثقافي شديد التنوع، ورحب الآفاق. بيتُ القصيد هو منظومة الوشائج الفكرية والثقافية التي ربطت هذا المغامر والرحّالة الشابّ بالعالم العربي وبالإسلام، منذ نهاية الخمسينات، والتي تستوقف بمرتكزاتها القارئ والباحث كليهما لأكثر من مسوّغ. نسجتها بعناية ودراية شخصيةٌ فذّة، متبصّرة، مغامرة ومناضلة في آنٍ، على مدى ثلاثين عامًا، وتكلّلت جهودها بالنجاح والتقدير. واليوم، وفي ذكرى مرور 107 سنوات على ولادته، يُفكُّ أسرُها الوثائقي، وذاك التاريخي، فتبصر النورَ بلسان الضاد،

وفي وعاءِ نشرٍ يجمع بين متعة القراءة والفائدة المعرفية.

مونتاي، باحثًا ومؤلِّفًا ورحالةً، يطوف في دول أفريقيا و"ديار الإسلام"، هو واحد من كوكبة من المفكّرين الغربيين والمستعربين الذين أخذوا على عاتقهم دراسة تبدّل أحوال مجتمعاتنا، وترسّخ منظوماتنا الثقافية. آثر أن ينصرف إلى دراسة انتشار دين سماوي آمن بمبادئه. بعد عقد ونيّف على مغادرته دنيانا (2005)، توفّرُ لنا "جائزة الملك فيصل" الكريمة، عبر مشروع "مائة كتاب وكتاب"، فرصةً علمية كي نكشف النقاب عن مساره الحياتي، ومسيرته العلمية، ونردَّ الفضلَ المعرفي إلى ذويه. فالامتنان والتقدير لهذه الجائزة الزاهرة وفريق عملها، والسلام والغفران لروحه الطاهرة.

على مدى عقود ثلاثة حُبلى بالمتغيرات الجيوسياسية، تظهّرت للمجتمع العلمي بجلاء صورةُ مونتاي، مستعرِبًا متمكنًا من الضاد، وشغوفًا بثقافتها، ومناضلًا صلبًا ومتأهبًا لمناصرة قضايا العرب المحقة، بالحجّة والإثبات والرأي الحصيف. عُرفَ في الأوساط العلمية باحثًا دؤوبًا، متابعًا ودارسًا أحوال مسلمي الانتشار، أنّى كانوا. طبيعة عمله يسّرت له أن يقصدهم في عقر ديارهم، خلال سنوات الحقبة الكولونيالية الفرنسية. فعايشهم وعاضدهم وتقصى أحوالهم. وانتهى باعتناق دينهم الحنيف في مدينة نواكشوط، بعدما

تجاوز أعوامه الستين. كان مقدامًا وذا رأي، فاتخذ مواقف شجاعة ولافتة، دفاعًا عن القضية الفلسطينية، وتنديدًا بعنصرية الصهيونية، وأخرى مؤيدة للثورة الإسلامية في إيران عند انطلاقها.

قيمته المعرفية المضافة هي بروزه واحدًا من سَدنة ثقافتنا العربية الإسلامية. وكفاه فخرًا وضعُ *"العربية الحديثة"*، وإصدار *"الإسلام الأسود"*، وترجمة *"المقدّمة"* لابن خلدون، وسواها من مؤلّفات قيمة تنوّعت مواضيع ومضامين ومقاصد. فأقدر بهذه الجهود وغيرها أهلَ الضاد من تدبّر القولة الخلدونية المشهورة "غلبةُ اللغة بغلبةِ أهلها"، ونصحهم بالانفتاح وعدم الاكتفاء بلغتهم الأم. وهي بيّنت في آنٍ عمقَ معرفته بالإسلام دينًا قويمًا وسمحًا، وثقافة مكتنزة، ونمطَ حياة.

أظهرت هذه الجهود اهتمامه بدرس مشكلات الدين والحداثة والعصر، وسعيه إلى تسليط الضوء على العلاقة بالموروث. كما أبانت عن عمق معرفته بالعالم العربي وقضاياه، ومدى شغفه بلسان الضاد، وانصرافه لهذه الغاية إلى درس ومتابعة مراحل تطور بُناه وسياقاتها، علاوةً على تجديد أساليبه، وتنوع مجالات استخدامه.

مؤلفاتٌ ثلاثة معتبرة، شكّلت أول عهدي بالتعرُّف إلى شخص وأفكار هذا المستعرِب المبرِّز، والتملِّي من كتاباته

المتمحورة حول مسائل وقضايا ذات صلة بالعرب عرقًا ووجودًا، وفكرًا ودينًا، وأدبًا ولغةً معاصرة[1]. مشوارُ شغفه بالعالم العربي منذ نهاية الخمسينات استوقفني، طالبًا فأستاذًا فباحثًا ومؤلِّفًا. فالاطّلاعُ على ما يكتبه مفكرون ومستعربون عن الفكر العربي وعن مسارات تطور الضاد، وبلغاتهم، ومن وجهة نظرهم تحديدًا، مبتغى كل باحث عربي متنبه وشغِفٍ بقراءة واقعه، واستقراء مرتكزات فضائه المعرفي بعيني الآخر. مونتاي كان واحدًا منهم. قرأناه ورأينا مفيدًا إشراك الآخر بمعارفه الجمّة. وها هي الفرصة العلمية تسنح للكتابة عنه.

ومن باب الامتنان لـ"جائزة الملك فيصل" الموقرة والقيمين عليها، ولروح مونتاي، ها نحن نفيه حقه على الناطقين بالعربية. فنكتبُ عنه علَمًا متألقًا، سطع في ديار العرب والإسلام، وتألق في الوسط الثقافي، بسمعته العلمية وريادته المعرفية، وطريقة معالجته قضايا ومسائل فكرية ولغوية، شائكة، وذات صلة وثيقة بتاريخنا وبحضارتنا العربية الإسلامية. فما الجديد والمفيد اللذان رفد بهما عالمنا كي يمسي أفضلَ عيشًا معه ومع أفكاره؟ الجواب الشافي بين دفتي هذا الكتاب.

(1) العربية المعاصرة، العرب، والفكر العربي.

نبذة وافية عن حياة مونتاي وتخصصه وتجاربه

تُظهرُ السيرة الخصبة للكاتب والرحالة فانسان مونتاي أنه كان واحدًا من ثلّة المستعربين الفرنسيين الذين نزلوا "ديار الإسلام"، قرابة منتصف الثلاثينيات. ظروفهم الوظيفية وطموحاتهم المهنية معطوفة على المقاصد الكولونيالية التوسعية لبلدانهم، قادت خطاهم إلى بلادنا. جابوا حيزاتها الحضرية وأريافها، مشرقًا ومغربًا، حيــث قُدِّر لهم أن يخدموا في أزمنة الحرب وفترات السّلم. اكتشفوا، غامروا، قادوا وحكموا، تشاركوا المعارف، وخاضوا المجالات العلمية، مما أكسبهم خبرات عملية، ترجموها دراسات ميدانية وأبحاثًا إناسية ذات شأن. اجتهدوا فأصابوا. وجاء أجرهم كتبًا رصينة وضعوها، ولا تزال تأثيراتها تتفاعل ومقولاتها تستعاد لتاريخه. أسماؤهم العَلَم (بارتيلمي، ماسينيون، بيلا، بلاشير، بيرك ولوسرف ورودنسون ومونتاي، وغيرهم)، وسَمت مؤلفاتهم، وخبَّرت عمّا وكيف رفدوا بها لسانَنا وثقافتنا وفكرنا والحضارة الإنسانية، على وجه العموم. ليس المجال متاحًا للتوسع في الحديث عن مجمل إسهاماتهم؛ فالمقام والكتاب مخصّصان لفكر فانسان مونتاي ونتاجه وأطروحاته المتميزة.

في إطلالة سريعة على مسارات حياته الموسومة بالغنى والتنوع والمغامرة، المؤتلفة لا المختلفة، نلاحظ أنه أبصر النور في 27 أيار/مايو 1913. والده شارل كانت له اليد الطولى في زرع "حبّ أفريقيا" في وجدانه الفتي. بعد تخرّجه من كلية "سان - سير" للتعليم العالي العسكري الواقعة في الضاحية الباريسية[1]، اختار عام 1935 خدمة "الشؤون الأهلية" (السكان الأصليين) في المغرب ضابطًا لفيلق الهجّانة. ومن ثمّ عاد إلى شمال أفريقيا، حيث شارك في حملة تونس مع فيلق الكَوم المغربي. التحق بالفرنسيين الأحرار، وشارك من خلال فرقة المشاة الشمال أفريقية في معركة فرنسا. وجرّاء إصابته بجروح بالغة عام 1945، عاد أدراجه إلى المغرب لقضاء فترة نقاهة مطولة. وفي عام 1948 عُيّن مراقبًا حربيًا أمميًا في فلسطين، وبين العامين 1950 و1952 مارس مهام ملحق عسكري في السفارة الفرنسية في طهران. بعدها بسنة التحق بالكتيبة الفرنسية في كوريا (1953). وحينما ناداه الواجب مجددًا انتقل إلى فيتنام، حيث أمضى عامي 1953 و1954. مسك الختام كان في تونس، حيث اختير في عام 1954 للمشاركة في صياغة اتفاقية الاستقلال.

(1) كلية تعنى بتكوين نخبة ضباط الجيش الفرنسي.

التبصّر في سنوات تدرّجه المهني، يُظهر أن مغامرته الأولى كانت في صفوف الجيش الفرنسي. وبما أنه من مواليد عام 1913، فقد كان من دون شكّ "صالحًا للخدمة"، وفقًا للمزاج العام السائد خلال القرن المنصرم، والمعروف بقوة نزعته إلى الحروب الكولونيالية والفتوحات وانتهاج سياسة سلب الأراضي. وحينما ناداه الواجب، وارتدى الزيّ العسكري، تصرّف في الزيّ المدني كما كان دأبه على الدوام، أي بصرامة وشرف وموثوقية. لبّى نداء الوطن، فكرّس سنوات مديدة من شبابه في خدمة الجيش الفرنسي، وخصّص للحرب العمومية جزءًا كبيرًا من شبابه. وردًا لهذا الجميل محضته هذه الخدمة التي أدّاها - تحت الراية الثلاثية الألوان (الأزرق والأبيض فالأحمر) - جِملةَ خبرات ومعاينات. كما مكنته على تأدية مهام استثنائية، وخوض تجارب مختلفة، إنْ في دياره الفرنسية، أو في كل من أفريقيا والمغرب والشرق الأوسط وإندونيسيا وسواها، حيث شارك في بعثات، وخاض معارك، وتبوّأ مناصب إدارية، وأخرى دبلوماسية ووزارية. فبلورت وجوه شخصيته المتفردة، وصقلت روحه المتوثّبة وفكره الثاقب اللذين أفادا أجيال الباحثين والمثقفين العرب والمستعربين.

الطالب الذي كانه إبّان دراسته في كلية "سان-سير"، يتلو أيام الآحاد آيات القرآن الكريم بالعربية، ويفسّرها، ويدرس

بشكل موازٍ في "مدرسة اللغات الشرقية الحية" بباريس، استلهم مثالَ عمّه العقيد مونتاي المعروف بلقب "مستكشف تيبستي" Tibesti [1].

بعد هذا التطواف الوظيفي في العديد من البلدان، حيث قُيّض له التعرّف والتأقلم مع بيئات جغرافية وكيانات سياسية، اتخذ قرارًا حاسمًا باعتزال الحياة العسكرية، والتفرغ الكلّي لأبحاثه عن العالمين العربي والإسلامي، اللذين شُغِف بهما أشدّ الشغف. وخلال الحقبة الواقعة بين الأعوام 1959 إلى 1968، عمل في المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء (IFAN) في دكار بالسنغال، قبل أن يعيّن مستشارًا ثقافيًا في جاكرتا (1969). كما شغل مناصب مختلفة في كل من بورما وألبانيا واليابان فإيرلندا[2].

ويشير تلميذه مالك شبل إلى أنه عاد مجددًا إلى الجزائر عام 1962، وانضمّ إلى مكتب كريستيان فوشيه الذي ترأس

---

(1) جبال تيبستي هي مجموعة من البراكين الخامدة شكّلت سلسلة جبلية في وسط الصحراء الأفريقية الكبرى في شمال تشاد وأقصى جنوب ليبيا. موقع ويكيبيديا، تاريخ الزيارة، 2020/4/22.

(2) صغنا بأسلوبنا هذه السيرة، بالاستناد إلى ما ورد عنه في كتابات طلابه (مالك شبل)، والباحثين الذين تناولوا حياته وكتاباته (صادق سلّام)، والمواقع التي عرضت بعض كتبه (كفن النار)، وسواها.

الهيئة التنفيذية المؤقتة في بومرداس (الصخرة السوداء سابقًا) من آذار/مارس إلى تموز/يوليو 1962. وفي منتصف الستينات، روى مساراته الفكرية والعسكرية والسياسية في كتاب *"الجندي المحظوظ"* (Soldat de Fortune)، مؤيّدًا معادلةً قالها الجنرال ديغول في قسنطينة، في كانون الأول/ديسمبر 1943: "فرنسا هي إنجيل أخوّة الأعراق وتكافؤ الفرص". فأثنى على هذه الشهادة النابضة بالحياة، والدالة على معرفة واسعة، أندريه فونتان، المدير المستقبلي لصحيفة "لوموند" (Le Monde)، في تقرير ختمه كالتالي: "من الصعب العيش مع مونتاي. لكن لا يمكن العيش في عالم من دون أمثاله". وكان هذا المثقف - الناطق بعدّة لغات- يشارك في كل نضال من أجل العدالة، مشيرًا في هذا الصدد إلى مقولة باسكال: "إنها غريبة وطويلة تلك الحرب التي يحاول فيها العنفُ قهرَ الحق"[1]. وفي عام 1977 اعتنق الإسلام في مدينة نواكشوط الموريتانية، وغيّر اسمه الأول من فانسان إلى المنصور بالله الشافعي، وتوفاه الله في باريس في 27 فبراير/شباط 2005. وُلِد مسيحيًا، ومات مسلمًا، ودُفن في الحيّز المخصّص لدفن المسلمين في المقبرة العمومية بباريس.

(1) https://oumma.com/vincent-mansour-monteil-1913-2005-le-dernier-des-grands-orientalistes-francais 2005/3/14/.

تكوينه المعرفي

هذا القسم مخصّص لبسط السيرة الذاتية والتكوين المعرفي لمونتاي، الباحث اللغوي والرحّالة والعالِم الأنثروبولوجي. عارفوه وزملاؤه وطلابه ترصّدوا بدأب وأناة مسارات حياته، وتركوا لنا معلومات دقيقة ووافرة عنها، مكّنتنا من التعرّف على تفاصيل تتصل بتكوينه المعرفي المتسم بالخصب والتعددية والشمولية. تكوينٌ غذّته تجارب عملية، ورفدته أخرى علمية، وتظهّر جليًا في شخصيته الحمّالة أوجه، المتّسمة بروحية الانفتاح ورحابة التفكير والشغف باكتشاف الآخر المختلف، والاعتراف بخصوصيته وحيثيّته. وهذا ما خبّرت عنه بالتحديد منظومة كتبه الثلاثين. شهادات عارفيه أعانتنا على إعادة رسم خارطة طريق لحيواته المؤتلفة والمختلفة على حدٍ سواء.

ففي مقاله "فانسان مونتاي أو المنصور باللَّه الشافعي، عالم لامع ورصين"، يلاحظ مالك شبل أن مونتاي لم ينهج مجالًا إبداعيًا واحدًا، يفضّله عن غيره. فقد واظب على قراءة نتاجات أهمّ الشعراء، أمثال أبي نواس، وحافظ الشيرازي، الشاعر الفارسي الذي سبق للأديب الألماني فولفغانغ غوته أن عظّمه في أيامه. وقرأ على وجه الخصوص ابن خلدون

(1332-1406)، مؤسس علم الاجتماع، ومؤلف كتاب *"العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"*. وقد عهدت "اللجنة الوطنية لترجمة الروائع" في لبنان، إليه بترجمة *"المقدمة"* إلى الفرنسية (Discours sur l'Histoire universelle Al-Muqaddimah).

حوار الثقافات وفتح المسارات المعرفية بمعانيها الرحبة، انعكسا في يقينه وممارساته تعريفًا للعقل الغربي بإبداعات الآخر، والعربي الإسلامي على وجه الخصوص. لذا ما تردّد للحظة في نقل أفكار ابن خلدون إلى لغة موليير. فانكبّ على ترجمة هذا المؤلف الضخم في بداية الستينات، وأنجزه، وكان هذا الأمر مغريًا جدًّا بالنسبة إليه. ومن ضمن سياسة مدّ الجسور وترسيخ قنوات التواصل مع الآخر، يشير شبل إلى أنه تعلّم أغلب اللهجات المحلية لجنوب وشرق المتوسط. ومن باب التشارك المعرفي، ذهب به الأمر إلى وضع معارفه باللهجة المحلية في خدمة السكان الأصليين أنفسهم. كما أتقن اللغات السامية (العربية والعبرية)، والفارسية، ولغات هندو-أوروبية، وأضحى المفكّر "الذي يكتب عن مواضيع مختلفة"، وهو اللقب الذي أطلقه عليه جان-بيار بيرونسيل-هوغوس، أحد أهمّ المتخصصين الحاليين في العالم العربي[1].

(1) Jeune Afrique Mars 22, 2005.

العقود الثلاثة التي صرفها جوَّابُ الآفاقِ المعرفية في أفريقيا وديار العرب والمسلمين، كانت حصيلتها منظومة كتبٍ موضوعة ومترجمة (*مقدمة ابن خلدون* 1967)، متنوعة الانشغالات المعرفية، تبحث في شؤون العرب والمسلمين (أفريقيا والاتحاد السوفياتي وإندونيسيا وإيران والمغرب)، تعالج قضايا فكرية، تدين عنصرية إسرائيل، وتخصّ بالدرس شخصيتين بارزتين: لويس ماسينيون *"كفن النار"* و*"لورنس العرب"* (1987). وهو يعدّ من كبار المستعربين الفرنسيين، أمثال أستاذه وزميله لويس ماسينيون، صاحب أهمّ عمل استشراقي في ميدان التصّوف، الذي ربطته به علاقة ودّ وصداقة منذ عام 1938.

مسارُه يُظهر بوضوح أن الرحابة الفكرية وروح التسامح والتصالح مع الذات والآخر، اللتين طبعتا سنوات تدرّجه الوظيفي، كانتا ميزته التفاضلية. فبحكم تطوافه المهني، وخدمته العسكرية في أكثر من قارة وبلد، وثنائيته اللغوية، وسعة اطّلاعه، اكتسب ابن منطقة الكورّيز[1] (Corrèze) الفرنسية، مرونة تواصلية لافتة مع السكّان الأصليين الذين محضوه ثقتهم، وأبدوا ارتياحًا لقدرته على التفاهم معهم بلهجاتهم المحلية. كما امتلك قدرة ملحوظة على الاجتهاد وتفسير الظواهر في مختلف

(1) إقليم فرنسي تابع لمنطقة ليموزين (جنوب وسط فرنسا).

المجالات التي خاضها بجرأة وتميّز. ما وقف عند تخوم المشاهدة، بل تفكَّر وتبصَّر في كل ما عاشه وخبره وعاينه.

تكوينه المعرفي لا ينفصل أو يُقرأ بعيدًا عن إنجازاته الكتابية التي تحاورَ وتجاورَ فيها الزمان والمكان كلاهما. فالكتابُ ترجمانُ أفكار واضعه، لا يُنظَرُ إليه بذاته ولذاته. فهو يُدرسُ في زمانه، ويُقرأ في سياقيه التاريخي، والمعرفي. صحيحٌ أن الكاتب يوثّق ترحاله الثقافي بالمعاني الرحبة، فيرى، ويُرينا، العالمَ "بعين أذهاننا" -وذهنه- لكن "خيرَ جليسٍ في الأنامِ" لا ينسلخُ عن ظروف عصره، ولا ينأى بصاحبه عن تأثيرات التيارات الفكرية والسياسية المهيمنة. من هنا، فالمؤلَّفُ، والمؤلِّف، لا يُقيَّمان بعيون القرّاء والنقاد فحسب، بل بالمقارنة مع غيرهما، بغض النظر عن المجالات المعرفية المشتركة الخائضين غمارَها. ومونتاي خير مثال حيّ على ما نقول.

الملاحظة السابقة تنسحب على مساره، حياةً وتكوينًا معرفيًا وخبراتٍ ميدانية ونتاجًا تأليفيًا. وبالانتقال من الخاص إلى العام نقول، إن ثمة مؤلفات خمسة من نتاجه، معتبرة ومتنوعة التمثيل لمساراته، تطرقنا إليها هنا، ومن شأنها كشف النقاب عن مراحل تكوّن تفكيره. كما أنها تعرِّف القرّاء إلى شخص هذا المستعرِب المبرِّز، وإلى أفكاره الحداثية وكتاباته

المتمحورة حول مسائل وقضايا ذات صلة بالعرب، عرقًا ووجودًا، وفكرًا ودينًا، وأدبًا ولغةً معاصرة، وسمها باقتدار بـ"الحديثة"[1].

وكما تنبئ مضامين الكتاب، فمونتاي يُثبت هنا وفي مواضع أخرى -وبعد مخالطته وتطوافه بعيدًا في العالمين العربي والإسلامي، والأفريقي، على مدى عقود ثلاثة- أنه خير مدافع بالكلمة الحرّة والرأي الحصيف عن أصالة فكر عربي، أُنتجَ بلسان مبين. فهو آمنَ عن قناعةٍ به، وظهّر بالشواهد والإثباتات والمعاينات والمشاهدات والمسموعات (خطب ومحاضرات وتمثيليات،...) وجوهَه الأحد عشر، واصطفاه عنوانًا أثيرًا يتصدّر أحد أهم مؤلَّفاته التي حملت اسميه الأصغرين.

يكشف الكتابُ النقابَ عن "مُعلّمَي مونتاي" اللذين اعترف بفضلهما. إذ لا يُستهانُ بدورهما في صلابة واتّساق التكوين المعرفي لطلابهما، بالمعنيين الحقيقي والمجازي. الباحث صادق سلاّم عَدَّ -في شهادة مثبتة- أن معلم مونتاي الأول هو أستاذه الروحي وزميله في "رباعي المستشرقين" لويس ماسينيون. كانا يتبادلان وجهات النظر في مسائل ثقافية

(1) كتبه الخمسة المقصودة هنا هي: *العربية المعاصرة، العرب، والفكر العربي والإسلام الأسود وتكنا.*

وحضارية، وفي إبداء الرأي -العلمي والسياسي- فيتوافقان مرّة، ويختلفان مرّة. وقد كرّمه مونتاي بعد وفاته، بإصدار كتاب حوى سيرته الذاتية الحافلة، وجمع مقالاته بعنوان *"كفن النار"*. معلّمه الثاني، العسكري طباعًا وقيمًا وسلوكًا، هو الجنرال شارل ديغول الذي قاد "فرنسا الحرّة"، وما تسنى له أن يعرفه شخصيًا. حبل الودّ انعقد بينهما بُعيدَ اطّلاع ديغول على كتابه *"الضباط"*، وإبداء إعجابه بمضمونه. فتبادلا الرسائل والآراء وكلمات الثناء، واستأنس كلاهما بوجهة نظر الآخر.

بعد القراءة المعمّقة لأغلب نتاجه الفكري، والاطلاع على مسارات حياته الغنية بالمواقف والمغامرات، ومشاركته تطوافه الوظيفي غير المألوف، بالإمكان القول إن فضيلة مونتاي، لا بل جِدّته واستنارته، معطوفة على تكوينه المعرفي وتجاربه الحياتية، تمثّلت في تقحّمه أبعادًا وخوضه مجالاتٍ علمية شائكة، وبالغة الأهمية والحساسية في آنٍ، تهيّبَ باحثون كثر، مستعربين وعربًا، خوضها. فأقدم ورفدَ المجتمع العلمي بنواتجها، التي لا تزال تُستعاد لليوم.

عرض موضوعي لتجاربه وكتبه وأطروحاته العلمية

نستهل بعرض موضوعي لنتاجيه الفكري والتأليفي. آثرنا الابتداء بموقع اللغة العربية -والحديثة تحديداً- في مداركه ومدارك رفاق دربه المعرفي. تبصّره وتفكّره في علاقاتها وتفاعلاتها مع البيئة التي نشأت وتطورت فيها، اقترن باهتمامه ورصده وظائفها المتجدّدة الأدوار، عند أهلها، وفي حقبة ما بعد خمسينات القرن المنصرم. وهذا ما يبسطه بالتفصيل في كتاب *"العربية الحديثة"* ، الأول من نوعه في المكتبة العربية. اهتمامه بكيفيات التلقي عند قارئه، ذكَّرته –على ما نحسب- وتذكّرنا على الدوام، بأن رؤية المتلقي للعالم هي - في آخر المطاف- مُحدَّدةٌ بالبُنية النحويّة والمُعجمية للّسانِ الذي تعلَّمه في طفولته. فهو في منزلة المعطى الأول الذي يوجِّه كلَّ التنظيم الخاص بإدراكه وفكره، وهو الذي يحدِّد رؤيته للعالم.

وهـي فرضيّـة أوردها مواطنُه العالِم اللساني أندريه مارتينه (1989) في فقرة "لسانٌ ما والعَالَم"، المدرجة في كتاب *"وظيفة الألسن وديناميتها"* ، وتلخّص وجهةَ النظر الهمبولتية الجديدة

new humboldtien[1]. اللسان المعني هو الضاد، منظوراً إليها بعيني كاتب فرنسي فذٍّ، شُغف بثقافتها وبمنطق لغتها، ورصدَ بأناةٍ تبدّلَ أحوال المعاش وحالاته عند أهلها، وفق المقولة الخلدونية، ناهيك بأساليبهم التخاطبية والكتابية. ابن خلدون ما كان غريبًا عن مداراك تفكّره وتبصّره ولا ترجماته.

وكي نعطيه حقَّ قدره، ونتقصّى معالم إبداعه في مجال تجديد النظر إلى المكوّن اللغوي العربي، نضعه في سياقيه التاريخي والمعرفي. فنعود إلى أوعية نشرٍ ذات صلةٍ، صدرت خلال العشريات الأولى للقرن العشرين. فقد شهدت هذه الحقبة انصراف العديد من الباحثين واللغويين العرب، والمستعربين، إلى دراسة لسان الضاد في ديناميته التزامنية، مثلما في تطوّر أساليبه التركيبية والدلالية، ناهيك عن الاغتناء المطّرد لذخيرته من المفردات. الاهتمام اللغوي ما توقف عند هذا الحدّ. بل شمل أيضًا رصد التبدّلات الحاصلة في أنساقه التعبيرية (المكتوبة، المرويّة، المسموعة والمُشاهَدَة)، وفي وظائف مستوياته التداولية الثلاثة (الفصحى، والوسطى أو الميسّرة أو الحديثة، والمحكيّة المعاصرة)، الآخذة باكتساب سياقات جديدة اقتضاها تطور احتياجات التواصل. وكلها

(1) أندريه مارتينه، *"وظيفة الألسن وديناميّتها"*، ترجمة نادر سراج، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ص 346. والفكرة تعود للنظرية الهمبولتية الجديدة.

تهدف في المحصّلة إلى إبراز وجوه ومسارات تطوره وتفاعله مع احتياجات المجتمعات العربية الناطقة به، وارتقاباتها.

والملاحظ أن المسارين البحثي والتأليفي أثمرا دراسات وأعمالًا تتّسم بالجدّة والرصانة، صدرت عن إعلام من أصحاب الاختصاص، غربيين بمعظمهم، أقبلوا على العربية درسًا وتأليفًا. ونذكر منهم، على سبيل المثال: ريجيس بلاشير، وجان كانتينو، وشارل بيلا، وهنري فليش، وأدريان برتليمي، ومارسيل كوهين، ودافيد كوهين، واللبنانيين المونسنيور ميشال فغالي، وحسن الحجّة، ومونتاي نفسه[1]. وحده المستعرِب مونتاي انصرف منذ نهاية الخمسينيات إلى درس "العربية الحديثة"، فناقشها أطروحةً جامعية، وأصدر من ثمَّ كتابًا بالفرنسية، وسَمَه بهذا العنوان. زميله المستعرِب شارل بيلا الذي تشارك وإياه الانشغال بالمنحى الإحيائي للعربية، احتذى المسار عينه. فوضع عام 1974 كتاب *"مدخل إلى العربية الحديثة"*، وبعدها بعام أصدر كتاب *"اللغة العربية الحيّة"*. ليس المجال متاحًا للتوسع في الحديث عن إسهامات كل هؤلاء؛ فالمقام والكتاب مخصّصان لفكر مونتاي ونتاجه وأهم أطروحاته المتميزة.

---

(1) ذكر أغلبهم في فقرة الشكر في الكتاب، واستشهد بآراء وتجارب ووجهات نظر بعضهم الآخر، وما فاته إدراج مؤلفاتهم.

اكتشافُ واحدٍ من أهم درر مونتاي، أعني *"العربية الحديثة"*، تواكبَ في ختام السبعينات مع الطموح المعرفي لطلاب الدكتوراه في جامعة السوربون، بمن فيهم كاتب هذه السطور. قرأنا ونهلنا من هذا المرجع اللغوي الشائق والرصين، الذي جدّد النظر إلى العربية المتدثّرة ثوبًا عصريًا، والذي يُعطى حقَّ قدره في هذا المؤلَّف. فهو واحد من مختاراتنا لكتاباته الإبداعية، الواقعة في حقل اختصاصنا، والكاشفة عن وجه من وجوه اكتنازه المعرفي ورؤيته الثاقبة. يومها (1979) قُدِّر لنا أن نتعرّف، عن كثب، على تكوينه العلمي، ونتفكّر بقدر ما أوتينا في أسباب توقه لاكتشاف أمارات التمايز ومعالم الخصوصية في العالم العربي الإسلامي، هويةً وثقافةً وعمرانًا وأنسنةً، ولغةً على وجه التحديد[1].

(1) أعانني شخصيًا كبيرَ عونٍ خلال إعداد رسالة شهادة الدروس المعمّقة (1979)، ولاحقًا خلال إنجاز أطروحة الدكتوراه في جامعة السوربون الجديدة (1978-1981)، بإشراف أستاذي دافيد كوهين عالِم اللهجات العربية المعاصرة المعروف.

"العربية الحديثة"

رغبنا أن يكون مفتتح الحكاية مع النتاج الفكري لهذا الكاتب والعالِم اللغوي، هو العربية، لساننا الأم الذي تتقارب الأرحام على أساسٍ منه. كانت لعقودٍ موضعَ شغفه ومحطّ اهتمامه العلمي. ما وقف عند حدود تعلّمها وإتقانها واعتمادها قناة تواصل وتفاهم مع الناطقين بها، الذين نزل في ديارهم منذ أواخر الثلاثينات. بل أقبل على دراسة فصحاها، فأجادها، وتآلف مع لهجاتها، فيسّرت له سبل التواصل مع بيئات محلّية ريفية ومدنيّة ارتادها. وتعبيرًا عن افتنانه بها، واعتقاده الراسخ بقدرتها على التلاؤم مع مقتضيات الحداثة، تابع بدأب علمي مراحل تطوّرها، واكتسابها حلّة عصرية، وخصّ صيغتها "الحديثة" بأطروحة جامعية متميّزة. وفي عام 1960 أودعها مؤلَّفًا رصينًا لا يزال لتاريخه مرجعًا أساسيًا للباحثين والطلاب والمدرّسين، العرب منهم والمستعربين. ولتبيّن أهمية وظروف نشره، نقرأ أن الهيئتين الفرنسيتين اللتين وفّرتا الدعم لإصداره هما: "جمعية تقدّم الدراسات الإسلامية" بالتعاون مع "وزارة التربية الوطنية".

مونتاي الشغوف بالثقافة العربية، والمطّلع على تاريخ النهضة العربية، لا يفوته أن يشير في مقدّمة كتابه (ص.1) إلى أنه ناقش أطروحة الدكتوراه عن "العربية الحديثة" بعد مئة عام من نهضة العرب (صدور "حديقة الأخبار" أول جريدة في الشرق عام 1857). وما رمى إلى التذكير به هو أن العربية اليوم (1958) تدخل مرحلة ثانية من إحيائيتها: تلك المتّسمة والعائدة للتقانة والمصطلحات العلمية. ويريد أنها تحرّرت من أعباء التقليد، وخطت بثقة نحو مسارات عنوانها الاستنارة والتقدم العلمي وذاك التقني.

المختاراتُ المدروسة ستتكلم عن ذاتها، وتعرّج على محطات وضّاءة من تجاربه العلمية والعملية. نتدخل لنقول، إن وعاء النشر هذا يشكل محطة بارزة في سجله التأليفي، ومرجعًا حديث المقاربة، يتّسم بشمولية وتكامل معالجاته لواقع لسان الضاد في النصف الثاني من القرن العشرين. وهو جاء ثمرةَ أبحاثٍ ومعاينات ميدانية ومقابلات ومناقشات لغويّة معمقة، أنجزها خلال وجوده لمدة عامين في لبنان. فسيرته تُظهر أنه خلف البروفسور في الكوليج دو فرانس، جاك بيرك، في إدارة "مركز الدراسات التطبيقية للعربية الحديثة" في بكفيا (المتن الشمالي). انغراسه البحثي في بيئة ناطقة بلسان الضاد، وفي بيروت تحديدًا، أقدراه على الاطلاع على أهم وآخر نتاجات أعلام الثقافة والفكر (ص. 2). مساره الأكاديمي أطَّرَ طموحه

المعرفيّ المتّصل بدرس وتحليل وجوه تطور العربية في العالم العربيّ (نهاية الخمسينات وبداية الستينات). بفطنة ودراية رصد المتغيرات التي لحقت بها، وأكسبتها معالم حداثة تنويرية، تحاكي متطلبات العصر. ورأى مفيدًا إعلام القارئ الفرنسي والغربي بها، وإطلاع أهلها -الفرنكوفيين منهم- على نتائج أبحاثه وخلاصة تصوراته المبنية على معاينات ميدانية، والمستندة إلى شواهد موثّقة وتجارب معيشة.

ومن باب المقارنة، وكي نضع جهديه البحثي والتأليفي في سياقيهما الفكري والتاريخي، نشير إلى عدّة إصدارات ظهرت خلال عقد ونيّف، وتندرج ضمن الجهود الآيلة إلى دراسة مختلف تجلّيات العربية، فصحى، وكلاسيكية، وحديثة، ناهيك بمقاربة قواعدها الكلاسيكية وطرائق استخدامها الحديثة في وسائل الإعلام. فالمفكّر ساطع الحصري التفت بدوره إلى المكـوِّن اللغـوي العربي، وأولاه عنايته. فأنجز في الفترة عينها (1957) كتاب *"اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية"* الذي نشره عام 1966. وصدر للباحث والمربي عمر فروخ في الفترة عينها كتاب *"القومية الفصحى"* (1961). أما المستعرب ريجيس بلاشير فعنى بإصدار *"قواعد العربية الكلاسيكية"* (1975). جيرار لو كومت خصّ قطاعي الصحافة والإذاعة بكتاب *"عناصر عربية في الصحافة والراديو"* (1975). وهذا الموضوع سبق لمونتاي تناوله في كتابه *"العربية الحديثة"*. كما صدر لعمر فروخ مؤلّف بعنوان

"عبقرية العربية الفصحى" (1977). ولاحقًا نشر الأب هنري فليش كتاب *"العربية الكلاسيكية"* (1986).

العرض الموضوعي لـ *"العربية الحديثة"* ، الذي خبرناه جيدًا، مرجعًا ثقةً ومادة تدريسية، يحثنا على القول: إن مونتاي جوَّد أدواته البحثية، وتنكَّب مهمّتي المنقِّب اللغويّ والمحلّل اللساني، للخوض في هذا الموضوع الشديد التشعّب، والرائد في زمانه. اعتمد نهجًا استقرائيًا، مكّنه من تحليل معطياته، والغـــوص في دوافع التبدّلات التـــي طبعت طرائق الكتابة والتخاطب والإعلام والخطابة والمحاضرة في الخمسينات. كما رصد بحِرفية أساليب الابتكار مشافهةً وكتابةً، واتجاهات التجديد عند مستخدميها.

تبدّلُ الاحتياجات التواصلية تظهّرَ في التطور اللاحق بمختلف المستويات التداولية للعربية، وأفضى إلى حركة إحيائية، شملت مجالي التقانة والمصطلحات العلمية، وما استتبعها من تطور طال التراكيب والأساليب والدلالات. تطوافه في بلاد العرب ومعرفته الميدانية والعميقة بقواعد الضاد، فصحى ودوارج، وما يتّصل بها من معارف قضى عقودًا في تحصيلها وتوظيفها في فهم اللسان العربيّ المعاصر، أعاناه كبيرَ عونٍ في هذا المسعى. ووجوده في بيروت -على وجه التحديد- لإنجاز هذه الدراسة الأكاديمية، يسّر له ظروفًا بحثيّة علمية، ومراجع ومصادر ذات صلة بطبيعة موضوعه.

يتألف الكتاب من مقدّمة وتسعة فصول وخاتمة. قراءةُ الفصول المسبوكة بلغة علمية ميسّرة سهّلت للطلاب التعرّف على واضعه باسمه الأول فانسان. مواضيع العربية الجديدة، والنهضة والقومية عالجها المؤلِّف تباعًا في المقدمة. ويذكر فيها "أن العرب، وبسبب شعورهم الجليّ بـ"الاستدامة اللغوية" بين عربية العصور الوسطى وعربية اليوم، اكتفوا بالقول، كما في الماضي: *العربيّة* أو *الفصحى* (بالكتابة الصوتية)، المصطلح الأول يمكن أن يُستلحق عند الحاجة بنعت، مثل *"حديثة"* أو *"معاصرة"* (ص 25-26). ولدى الكلام عن القومية، يعود إلى مستعرِب آخر، فينقل فكرة مبتكرة عن جان لوسرف (كتاب *"الأدب العامي ونهضة العربية الحديثة"* ، 1932)[1]: "يبدو أن اللغة العربية اليوم هي الرابط الوحيد القادر على الجمع بين ورثةِ ثقافةٍ إسلامية، ليسوا كلهم مسلمين، ومُكمّلي حضارةٍ عربية، ليسوا في غالبيتهم عربًا" (ص 35). لوسرف نفسه تكلم عن "هذه العربية *الخالدة*، كما يقول عنها بافتخار أولئك الذين يرون فيها أداةً للثقافة، [...] التي تستمر كذلك اليوم بوصفها "اللغة الدينية للإسلام"، وفق عبارة ماسينيون[2].

(1) Lecerf (Jean). "Littérature dialectale et renaissance arabe moderne" (*BEO* de l'Inst. Fr. De Damas, 1932, ∏, 2, P. 179-258).

(2) *" العربية الحديثة"* ، المقدمة، ص 25.

تناولت المقدمة موضوعي: كيف نترجم؟ وأمثال وأقوال شعبية، في حين تمحورت الفصول حول: الكتابة (الأول)، والصوتيات (الثاني)، والازدواجية اللغوية (الثالث)، والثنائية اللغوية (الرابع)، وعلم الصرف (الخامس)، وعلم الدلالة (السادس)، وعلم النظم (السابع)، والأسلوب (الثامن)، والأسلوبية (التاسع).

الإطالةُ هنا تخدم متطلبات العنصر الأول لكتابنا، حيث تناول في قسمه الأخير (الأسلوبية) موضوعَي النسخ الأسلوبي وتمارين أسلوبية، شملت ثمانية عشر صنفًا أو مجالًا، مكتوبة في الأصل بالعربية، ومدونة بأسلوب الكتابة الصوتية، ومترجمة إلى الفرنسية. المجالات هي: الخطابة، المحاضرة، الجيوسياسي، الصحفي، التوجيهي (كتابة افتتاحيات)، القانوني، الاقتصادي، النقابي، الجِدالي/ الحِجاجي، الأخلاقي، النقدي الأدبي، العلمي، الفلسفي، السردي، الحواري، الدرامي، الفنّي والشعري. ولفتنا أن النصوص المتخذة شواهد على الحضور التعبيري للعربية الحديثة تعود لأعلام وقادة وكتاب معروفين، بمعنى رموز مسموعين ومقروئين ومؤثرين في مجتمعاتهم.

نذكر منهم الرئيس جمال عبد الناصر (الخطابة والجيوسياسية والقانون – مرسوم جمهوري)، ومحمود مزالي (المحاضرة)، ورشدي المعلوف (كتابة الافتتاحيات)، ومحمود أمين العالم

(النقابي)، وفؤاد أفرام البستاني (الجدالي/الحِجاجي)، ويوسف غصّوب (الأخلاقي)، وشوقي ضيف (النقد الأدبي)، وجميل صليبا (الفلسفي)، والروائي العراقي فؤاد التكرلي (النقد الأدبي)، ونجيب محفوظ (الحواري)، وتوفيق الحكيم (الدرامي)، وبشر فارس (الفني)، ونازك الملائكة (الشعري). والعينة شديدة التمثيل والتنوّع، كما يظهر من الأسماء المذكورة.

ظاهرةُ "النسخ الأسلوبي"، التي يبدو أن تمددها وترسّخها التدريجي في الممارسات الكتابية الحديثة أقلقته، ولا تزال تقلقنا لتاريخه. نصطفيها عَينةً من الفصل التاسع الخاص بالأسلوبية، لنطلع على وجهة نظره. لا يتعاطى مع المسألة باحثًا فحسب، بل بخلفية المستعرِب المتضلّع من الفصحى، الحريص كل الحرص على التزام قواعدها، وعلى الحفاظ على روحها، واحترام منطقها ومنظومة قواعدها. وفرةُ الصيغ الجُمْليّة "الأوروبية" (محاكاة المصطلحات الفرنسية والإنكليزية) المتسرّبة إلى نسيج العربية الحديثة، استرعت انتباهه (1958). وكي لا يكتفي بعرض المشكلة، وبغية إسناد رأيه، يستشهد بعالمين مشهود لهما، عربي وغربي، التفتا إلى هذه المسألة: هانس وير Hans Wehr، والشيخ عبد القادر المغربي.

ينقل عن المستشرق ومحقّق المخطوطات الألماني (1943، ص.25) ملحوظتين تتناولان مفهومَي الشيوع والراحة: "أن

تتسرّبَ أنماطُ النسخ هذه إلى كتابات أفضل المؤلفين، فهذا يُظهرُ إلى أيّة درجة باتت معتمدةً في اللغة، ويبيّنُ لنا بأيّة سهولة بمقدورها أن تغيب عن انتباه النقّاد. صحيحٌ أن تطبيعها أمسى سلسًا بحكم أنها لا تتضمن سوى كلمات عربية، وأن تركيبها صحيحٌ، [لذا] فظاهرها ليس صادمًا بتاتًا"، كما يستخلص. ويستحضر ملحوظةً ثانيةً للشيخ المغربي، وردت في مقال "تعريب الأساليب"[1]. فقد لحظ الشيخ المغربي عدة شواهد تسند وجهة نظره، مثل قولهم اليوم (1943): عبارات:"سادت الفوضى"، و"قتل الوقت"، و"أنقذ الموقف". المستشرق وير يذكر من جهته نموذجين وردا بقلم طه حسين: الأول: "وإذا هم يعلقون على شفتيّ"، والثاني يعزوه عميد الأدب العربي إلى أصله الفرنسي، فيكتب: "أشياء...قد شُدّت من شعرها...، كما يقول الفرنسيون". كما يشير أيضًا إلى نموذج رائج [على الألسن وفي الأقلام] هو عبارة "لعب دورًا". ويستنتج مونتاي أن "بعضهم يغتاظ مما يبدو له ضعفًا كبيرًا، ونقصًا في جِدّة التفكير. أما الباقون، وهم الأكثرية [في اعتباره]، فلم يعودوا يعطون هذا الأمر أية أهمية. فهم أمسوا يستخدمون بشكل شبه تلقائي صيغَ النسخ الأسلوبي هذه التي تسلّلت اليوم، كليًا، إلى اللغة". وعلى

(1) مقال منشور في الجزء الأول (1943) من مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة (ص 332). نقلًا عن كتاب مونتاي *"العربية الحديثة"*، ص 307.

ما نفهم مما لم يقله للقارئ جهرًا، فالأمر الواقع اللغوي الكتابي، وحتى الشفهي، باتا في حكم تحصيل الحاصل، واندرجا في السلوكيات التعبيرية لأهل الضاد. وكان على مُستعرِبين (ألماني وفرنسي) ولغوي عربي، أن ينبّهانا إلى تبعاتهما على العربية عمومًا، وإلى صيغها "الحديثة" الآخذة بالترسّخ والانتشار.

نفتح قوسين لنؤكّد صواب الملحوظة التي أبداها مونتاي بخصوص ظاهرة "النسخ الأسلوبي"، التي لا تزال نماذجها الشائعة تتناسل وتتكرر حتى يومنا الحاضر، في الاستخدامين الكتابي والشفهي، عند النّخب وعامة الناس، على حدّ سواء. ولنا في شاهد حديث (2020)، ورد في كلمة ألقاها الرئيس اللبناني ميشال عون في اجتماع رسمي عُقد في القصر الجمهوري خير مثال. فقد شدّد رئيس البلاد على "الدور الذي تلعبه قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان (اليونفيل)". عبارة "لعب دورًا"، المستعادة على لسانه، واحدة من جملة عبارات وتراكيب لحظها مونتاي، وتمثّل بها على شيوع هذه الظاهرة الأسلوبية في خطاب المجال العام[1].

(1) الخبر نقلته قناة MTV اللبنانية خلال نشرة الأخبار، بتاريخ 2020/6/3. وتناول اجتماعًا ترأسه العماد ميشال عون قبل ظهر اليوم في قصر بعبدا، وحضره سفراء الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس=

لا يغيبُ عن مونتاي وضع هذه المسألة في إطار ما نسمّيه اليوم "التفاضلية اللغوية". فيشير مثلًا إلى لجوء بعض الناطقين بالعربية إلى اصطناع مقابلات حَرفية لتعابير خاصة بالفرنسية، أو الإنكليزية. وهي بادرة تقع في خانة المفاضلة شبه الواعية لتصوّرٍ غربي "غير قابل للترجمة"، بصيغة الماضي. فقولهم: "طَلبَ يد فلانة"، لا يماثل في الوقت الراهن قولنا: "خطبَ فلانة"، الخاص بالمراسم الاحتفالية التقليدية. ويستنتج أنها، ومن دون أدنى شكّ، من تبعات الثنائية اللغوية التي توسّع في الكلام عنها في الفصل الثالث. نعود إلى قاموس *"المنجد"*، فنجده يُدرج هذه الصيغة بالمعنى المتعارف عليه "تقدم للزواج من امرأة"[1].

راهنيةُ استخدام العربية الحديثة في سياقات ترفيهية (السينما)، وحربية (الكتابات عن المعارك)، حدت به إلى الاستشهاد بـنماذج (بنت زمانها): "أفيشات" السينما، وخطابات الرئيس عبد الناصر، وكتابات منظّر حزب البعث العربي الاشتراكي ميشال عفلق. واستعان كذلك بنماذج من الأدباء

= الأمن: روسيا، الصين، فرنسا، بريطانيا، والولايات المتحدة الاميركية، وممثل الأمين العام للأمم المتحدة في لبنان، وذلك للبحث في موضوع التمديد للقوات الدولية العاملة في الجنوب، بموجب قرار مرتقب لمجلس الأمن.

(1) *"قاموس المنجد في اللغة العربية المعاصرة"*، ط 2 (بيروت: دار المشرق، 2001)، ص 913.

والكتّاب المعروفين والمقروئين أمثال: شوقي ضيف، محمد حسنين هيكل، سهيل إدريس، فؤاد التكرلي، وليلى بعلبكي. وكدأبه يصطفي ألفاظًا معيّنة (حياة، عالم ودنيا)، ويقتفي خطوات استخدامها في نتاجات قولية، تعود لسياسيين وأدباء، أمثال: جمال عبد الناصر وعبد الرحمن الشرقاوي ويحيى حقي ومحمد حسنين هيكل ونجيب محفوظ (مصر) ونازك الملائكة (العراق)[1].

وهي في نظرنا بادرة موفقة، كشف من خلالها النقاب عن معظم المجالات أو المشاغل التي يترسّخ فيها حضور العربية الحديثة أداةً تعبيرية فاعلة ومؤثرة ومتأثرة باللغات الحية الأخرى. فهي باتت وفق ما أظهرته مخرجات دراسته، لغةً معاصرة، قادرة على تمكين الناطقين بها من التواصل بيسر، إرسـالًا وتلقيًا، ونقلًا للخبرات، وفهمًا للآخر، وتفاهمًا معه، في عالم اليوم (مطلع الستينات). والأعلامُ المستشهد بنصوصهم وأقوالهم وخطبهم تؤكد على ترسّخها في مناحي حيوات أهلها والناطقين بها، عربًا كانوا أم عجمًا. أسلوبه الاستقصائي الاستقرائي ونهجه التحليلي المجوّدان أعاناه على بلوغ مقاصده.

(1) *L'Arabe moderne*, Paris, Klincksieck, 1960 p. 306-310.

تقييدات حول تكنا: نموذج تطبيقي لأسلوبه الاستقصائي

قبل أن نتابع تقصّي خطواته الإبداعية المتوزّعة ببراعةٍ واتساق في مضامين كتبه، ونتناول هذا الكتاب التاريخي القيّم والأول في سجله التأليفي، نذكّر بانتمائه إلى مجموعة متميّزة من مستعربي الأربعينات. فهو ورفاقه المستعربون ماسينيون وبيرك ورودنسون، تألقت أسماؤهم واشتهرت أعمالهم، في ظلّ الحقبة الكولونيالية الفرنسية. ولطالما عرّفوا أنفسهم كباحثين عصريين منقّبين، قاموا بإجراء أبحاث بطريقة مبتكرة، وتمكّنوا من تحليل مجتمعات غاية في التعقيد[1]. شخصيته الباحثة والمنقّبة، جديرة بالدراسة، أسلوبًا وإبداعًا، تظهّرت في كتابه هذا الموسوم "تقييدات حول تكنا"[2].

---

(1) العبارة للروائي محمد خير الدين، وأدرجها في يومياته في كتاب "الهدهد الطليق"، ونقلناها عن حلقة من برنامج "قراءة في كتاب"، لمحمد عالي الحيرش، تناولت كتاب مونتاي، وبثت على قناة محمد عالي التعليمية التربوية. alkutub iconicretouch.com quaraat-alkoutub تاريخ المشاهدة 2020/5/28.

(2) لم يتسنَّ لنا الاطلاع المباشر على الكتاب. فعدنا إلى مواقع أدرجت قراءة سمعية للكتاب (حلقة من برنامج "قراءة في كتاب"، لمحمد=

وكي نضع هذه الدراسة الميدانية في سياقيها الوظيفي والتأليفي -وهذا نهجنا في الكتاب- نشير إلى أن قراره الانصراف إلى القيام بأبحاث حول المجتمعات العربية الإسلامية، كانت باكورتُه إنجازَ دراسة أنثروبولوجية، تواكبت مع طبيعة العمل الذي أنيط به بصفته ضابط "مصلحة شؤون الأهالي" في المغرب. اقتفى نهجَ ضباط المكاتب العربية الأوائل، فركّز في دراساته الميدانية على قبائل جنوب المغرب. بزّهم بإصدار كتابٍ ضمّنه مشاهداته ومعانياته، وواكب تجربته العملية في الصحراء المغربية.

فباعتباره متخصصًا في علمَي اللغويات والأعراق، استهواه العمل الميداني. فأصدر عام 1948 كتابًا بعنوان Notes sur les Tekna (Institut des Hautes Etudes Marocaines Notes & Documents III),[1]. الترجمة العربية للكتاب قام بها

= عالي الحيرش تناولت كتاب مونتاي وبثت على قناة محمد عالي التعليمية التربوية). تاريخ المشاهدة 2020/5/28، وتعليقًا كتبه حمدي الحيرش. للمزيد يمكن العودة إلى:

قراءة في كتاب // تقييدات حول إفني وأيت بعمران// فانسان مونتاي https://www.youtube.com_

https://machahid.info/100082.html www.souss 24.com.

ينظر الموقع المغربي /8/2013. تاريخ الزيارة 2020/5/17.

(1) صادر عن دار la Rose بباريس.

هيبت الحيرش عام 2017، بعنوان "تقييدات حول إفني وأيت باعمران"[1]. مصطلح "التقييدات" (من جذر "قيد") يراد به جملة الملحوظات التي استنتجها مونتاي، ورغب في أن يجعلها مظلةً للدراسة. الدراسة تُظهر أسلوبه الكتابي المتميّز بالاقتضاب، وتنطوى على معلومات وافرة على قدر من الأهمية عن مدينة إفني وضواحيها. كما تناول جوانب من تاريخ قبائل تكنة (تُكتب "تكنا" و"تكنة") الصحراوية المغربية، محددًا موقعها الجغرافي الاستراتيجي، ومسلطًا الضوء على دور القبائل في تنظيم تجارة القوافل الصحراوية المارة بأراضيها. كما تطرّق إلى دور الوساطة الذي لعبته بين المدن المغربية الكبرى والمراكز التجارية في دول جنوب الصحراء كتنبكتو وشنقيط وغيرهما. أنجز الكتاب خلال خدمته الرسمية في تلك المنطقة، وفي ظل ظروفها الزمانية والجيوسياسية. الموضوع بحدّ ذاته والمنطقة الصحراوية المسلطة عليها أضواء أنثروبولوجية شكّلا فتحًا له وتأكيدًا لقدراته.

نهجه وطريقة عمله تظهّرا من خلال عنايته الملحوظة برسم حدود المستعمرة السابقة، وتحديد عدد سكانها (30000 نسمة). بعدها تناول -في ثلاثة فصول، تتفرع عنها عناوين

(1) صدرت الترجمة العربية عن مركز الدراسات والأبحاث – مشاريع، مراكش 2013.

فرعية- جوانبَها الطبيعية والاقتصادية والسياسية. الفصل الأول، هو عبارة عن دراسة وافية للمعطيات الطبيعية للمنطقة (أيت باعمران)، شملت عناصر التضاريس، المناخ، الغطاء النباتي، والثروة الحيوانية. وتطرّق فيها إلى وصف الساحل (طوله وعلو أمواجه وما يزخر به من تنوع في الأسماك). كما لاحظ أن سكانها القرويين يمارسون الزراعة وتربية الماشية. وأغلبهم مستقرون، باستثناء فصيل اصبويا (خصوصًا اولئك الذين يمتلكون قطعانًا كبيرة)، فهم يتنقلون خلال الصيف بين وادي أساكا ووادي درعة.

حسُّه اللغوي دفعه إلى استنباش دلالة لفظة "إفني". فعاد إلى عالم اللسانيات الفرنسي إميل لاووست، الذي رأى أنها تعني "صحراء صخرية" في اللسان البربري (الأمازيغية). الفصل الثاني تمحور حول الدراسة الاقتصادية للمنطقة. فركز على نمط عيش السكان، مثلما على مقوّمات الفلاحة، والصيد البحري، والصناعة، والأسواق والمواسم (أعياد شعبية وملتقيات تجارية شبيهة بأعياد الغفران عند البروتون). أما الفصل الثالث، فخصّصه لدراسة سياسية تناولت فترة مفصلية من تاريخ قبيلة أيت باعمران. وتطرّق فيه إلى التركيبة السكانية، أي "الاتحادية" المكونة من سبع قبائل معروفة[1].

(1) أيت اخلف، أيت الخمس، إصبويا، إلخ.

كما تناول طبيعة التحالفات التي عقدتها بعض هذه القبائل مع اتحادية تكنة المجاورة. ولم يفته أن يدون ملحوظة مهمة بخصوص حجم الهجرة إلى مدن الشمال، التي اضطرت إليها شريحةٌ واسعة من السكان (الطبقة العاملة)، بسبب سنوات الجفاف المتوالية: ثلث الذكور من عام 1919 إلى عام 1926، ونصفهم من عام 1926 إلى عام 1933. المعلومات المدرجة في فصول الكتاب عُزّزت بخرائط توضيحية تشرح الموقع الجغرافي.

اختيار هذا الكتاب -على وجه التحديد- مردّه أنه يكشف وجه الباحث الأنثروبولوجي المنقّب لمونتاي. وجاء حصيلة التحاقه بأول بعثة وظيفية عهدت إليه في الصحراء المغربية، ونفّذها تحت راية بلاده. وفضيلتها تمثلت بإنجازه عام 1948 أول دراسة علمية.

"الإسلام في أفريقيا السوداء"[1]

بعد "تكّا" الذي عالج مسائل تاريخية وأنثروبولوجية، ها هو يتناول بالدرس في كتاب *"الإسلام الأسود"* قضايا تاريخية واجتماعية تتصل بانتشار الإسلام في القارة الأفريقية. نشير بدايةً إلى أن نماذج كتاباته الفكرية والإبداعية تأتي بقلمه وعلى لسانه حينًا، كما توثقها حينًا آخر كتاباتُ طلابه ومعاصريه، المهتمين بترصّد مساره الفكري، والعارفين بطرائق رؤيته للآخر، وتبصّره في منظومات سلوكياته. الشهادة الأولى في الكتاب وردت من تلميذه مالك شبل، الذي واكب خطواته. رأى أن *"الإسلام الأسود"* (L'Islam noir) متفرّد، ولم يصدر حتى اليوم كتاب يضاهيه في طرائق معالجته الكثير من القضايا التاريخية والاجتماعية. فطائفة الأسئلة التي يثيرها جعلته، بلا ريب، متجذرًا في الذاكرة الجَمعية. إذ دشّن تحقيقًا حول خصوصية الإيمان في أفريقيا الصحراوية الجنوبية، منمطًا إياها لعقود عديدة.

---

(1) فانسان مونتاي. *"الإسلام في أفريقيا السوداء"* (*L'Islam noir*)، باريس، منشورات سوي (Seuil)، 1964، 367 صفحة، مصوّر، مع لوحات وخرائط، من سلسلة فكر "حدود مفتوحة" Esprit «Frontière ouverte»).

نتوقف عند كاتب غربي قرأ المؤلَّفَ. ففي كتاب *"رهاب الإسلام ورهاب اليهودية: الصورة في المرآة"* ، يستشهد المؤلِّف إلان هاليفي بمونتاي لدى الكلام عن انتشار الإسلام في جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا. فيلاحظ، بالاستناد إلى ما ورد في كتابه *"الإسلام الأسود"* (1971)، أن انتشاره جاء متأقلمًا مع الأوضاع المحلية. ويربط المسألة بقضية التعريب: "فالحروب الأهلية في التشاد، وكذلك مجازر دارفور التي كانت تحاول السير غير المؤكد نحو التعريب، في بلد مسلم، كانت نتيجة حسابات دول وتدخلاتها، وعلى سبيل المثال، فرنسا وليبيا في التشاد، وليبيا والسودان في دارفور".

الثقافات الأفريقية تختزن كسائر الثقافات سماتها الخاصة، لذا لم يكن غريبًا عنه، لدى دراسة الإسلام في أفريقيا السوداء -وسواها- إغفال المحليات والخصوصيات التي خبرها عن كثب. فقد أسعفته على حسن التعاطي مع الأفراد والجماعات. كما سمحت له بإبداء هذا الرأي، بخصوص طرائق انتشار الإسلام وقدرته على التكيّف والتأقلم مع ثقافة وأعراف المجتمعات التي انتشر وتمكّن فيها، ولم يغزها، كما استدرك مونتاي نفسه.

قراءةُ الباحث مونتسيرا بالو-مارتي للكتاب، تناولت وجهًا آخر لمقاربة مونتاي هذا الموضوع. استهلها بشرح مدلول العنوان بحدّ ذاته. فلاحظ "أن العنوان الفرعي، أو بالأحرى التعليق الذي التصق بالكتاب، هو: "ديانة تغزو أفريقيا السوداء". مونتاي

نفسه، على ما نحسب، ما توقف طويلًا، ولا هو تبنّى مفهوم "الغزو" (الكولونيالي الدلالة)، بقدر ما التفت إلى دلالة "الانتشار" ومغازيه. فهو لم يقف عند تخوم الديانة الإسلامية بذاتها، أي تلك التي اصطفاها بمؤلَّف (*الإسلام* 1963)، بل اقتفى خطوات انتشارها رصدًا وبحثًا وتحليلًا وإحصاءً فتأليفًا. فشملت مؤلفاته كلاً من: *إيران* (1956)، *والمغرب* (1962)، *وأندونيسيا* (1972)، *والاتحاد السوفياتي* (1982).

وبالعودة إلى إحصاءات الكتاب، ينقل بالو-مارتي عنه قوله: إنّ "الإحصاءات عن أفريقيا نادرة، وغير متاحة، وغائبة في أغلب الأحيان. ومن الممكن تكوين فكرة عامة عنها، وتقديم تقديرات محتملة فحسب". كما يشير إلى أنّ "ما يزيد عن ربع الأشخاص ذوي البشرة السوداء تقريبًا، الذين يسكنون في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، هم مسلمون (أي قرابة 40 أو 50 مليون نسمة). إلّا أنّهم يتوزّعون في القارة بشكلٍ متفاوتٍ: يعيش نحو 20 مليون نسمة منهم شمال نيجيريا بشكلٍ خاص، ونحو 15 مليون في شرق أفريقيا، والعدد نفسه في غرب أفريقيا (وهو الاسم الذي يُطلق على الأراضي الشاسعة التي تمتدّ من السنغال إلى تشاد)". وهذا يعيد إلى الأذهان ما أورده في كتاب *"تكنا"* الذي تطرّق فيه إلى توزّع سكان تلك المنطقة الصحراوية المغربية. ويلفتنا المؤلِّف إلى أن الأمثلة في هذا الكتاب، "تشمل بشكل خاص غرب

أفريقيا، من ضمنها نيجيريا، حيث يسكن قرابة ثلاثة أرباع إجمالي عدد المسلمين في أفريقيا".

أتى مونتاي على ذكر الكثير من المشكلات التاريخية والحالية، كتلك الواردة في عناوين الفصول: الناس والموارد، التفكير الجامح، أسلمة أفريقيا السوداء، أركان الإسلام الخمسة، المرابطون "السود والبيض"، مسيرة المرأة، البحث عن كنيسة، هبة اللغات، اتجاه الاشتراكية في أفريقيا، تيارات ونزعات، وانتشار الإسلام في أفريقيا السوداء. وفي الجزء التاريخي تناول "بلدانًا تمتد من غانا التي ذُكرت "للمرّة الأولى في نهاية القرن الثامن"، إلى أراضٍ سيطر عليها ساموري في نهاية القرن التاسع عشر". كما ذكر المجموعات السياسية القديمة في تكرور ومالي وسونغاي وبورنو وفوتا وسوها- الفلان.

ولكونه دارسًا ومتابعًا دؤوبًا لمراحل وكيفيّات انتشار الإسلام في أفريقيا –والاتحاد السوفياتي وجنوب شرق آسيا – فقد التفت أيضًا إلى مشكلات دخول الإسلام، وسبل انتشاره في مناطق أفريقية يسكنها الزنوج. فأكد أنه "لا يمكن تعريف الإسلام في أفريقيا السوداء إلّا من خلال الإحيائية animisme" (مذهب حيوية المادة، أي الاعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد)[1]. معلوماته المكتنزة عن

(1) جبور عبد النور، وصبحي الصالح، "المنهل"، (قاموس فرنسي-عربي)، ط 4، (بيروت: دار الآداب ودار العلم للملايين، 1977)، ص 50.

الإسلام جعلته يتوقف عند مسألة مهمة تتناول الأسرة المسلمة، مرتئيًا أنها "تواجه ثلاث مشكلات أساسية، وهي: مهر الابنة، وتعدّد الزوجات، والنسب الأمومي". وبالنسبة إلى النقطة الأخيرة، يعتقد مونتسيرا بالو-مارتي أنّه من الضروري بمكان تعريف المصطلحات المستخدمة في الصفحة 326 بدقة (الاقتباس الوارد أعلاه)، لا سيما أنّ الكاتب اكتفى بالإشارة باختصار إلى هذه القضية في بداية الكتاب: "لطالما شكّل كل من المرأة والنسب الأمومي العمود الفقري للمجتمع" (ص. 35).

بالإضافة إلى ذلك، لاحظ كاتب المقال أن "الشعوب الأفريقية في جنوب الصحراء الكبرى التي اعتنقت الإسلام، حافظت على سماتها الخاصة، بحيث لا يمكن دراسة الإسلام في أفريقيا السوداء من دون التطرق إلى الثقافات الأفريقية بحدّ ذاتها". ويستنتج أن الإسلام اليوم يُعدّ "دينًا حيويًا ونشيطًا يشهد انتشارًا كبيرًا"، لكن من الصعب التأكّد من استدامة انتشاره مستقبلًا. ويبقى ذلك رهن "عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، أساسها من خارج أفريقيا -على الأرجح-". تساؤل منطقي راود مستعربًا كبيرًا، منذ أكثر من نصف قرن (1964)، فطرحه، محاولًا استشراف مستقبل هذا الدين الحنيف في القارّة السوداء.

الفكر العربي

كتاب ثالث نستقرئ عبر فصوله نماذج دالة على معالم التفكّر والإبداع عند مونتاي. وللحقيقة فكتاب *"الفكر العربي"* المستتبع بجملة وقائع واستشهادات، هو خير نموذج راقٍ لكتاباته الفكرية، وشاهد على أسلوبه الحجاجي اللذين تآزرا، ليُظهرا وجهًا من وجوه رؤيته الحية للعالم العربي ولمرتكزات فكره. شغفه بالعرب وثقافتهم واعتناقه الإسلام، وتعمقه في الشريعة الإسلامية، خوّلته التطرق إلى مواضيع شديدة الأهمية، بما فيها تعايش "أهل الكتاب" في إطار "الدولة الإسلامية"، علاوةً على تناول مكانة المرأة المسلمة في مجتمعها (ص 90 - 94). فعالجهما في فصلين خصّصهما للفكر الأخلاقي، وذاك الاجتماعي عند العرب. هذه المسائل تُظهر اهتماماته، وتُبرز وجهًا من وجوه رؤيته للعالم العربي وللمسلمين، بحكم إظهارها سعة اطّلاعه، ومتابعته الدقيقة أحوال المرأة المسلمة ومكانتها وتعامل المجتمع -الذكوري- معها، إن وفق أحكام الشريعة، وفي ضوء ما ورد في القرآن الكريم، أو من خلال المعاملات المطبقة وفق الأعراف والتقاليد المحلية، في أكثر من بيئة عربية إسلامية، تسنّى له دراستها ميدانيًا، ووثّق معطيات عنها.

تناول مختلف تجلّيات هذا الفكر، أي الدينية، الصوفية، القانونية، الأخلاقية، الاجتماعية، الفلسفية، الثقافية، العلمية، التاريخية، الاجتماعية الاقتصادية، وتلك السياسية. وقد توسّعنا في عرض ذاك الاجتماعي نموذجًا بارزَ الدلالة على توجهاته وطبيعة انشغالاته، ناهيك عن سعة معارفه بالعرب، عرقًا وثقافةً وفكرًا.

لفتنا أنه رغب في أن يكون البيت، الرحلة المتقدمة في الحضارة، مفتتحَ كلامه عن الفكر الاجتماعي. وما أخطأ خيارًا. فقد اجتمعت في البيت عند العرب عدة معانٍ ودلالات وإشارات. فهو بمعانيه المؤتلفة، أي الحُرمة والراحة والخصوصية، يكون سكنًا وسكينةً ومبيتًا، أي إقامةً واستقرارًا. وبمفردات السوسيولوجيا، فهو يعني أيضًا العراقة في الحضارة والعمران، ومغادرة البداوة المتقشفة. ومن ضمن الدلالات النفسية والمعنوية الحديثُ عن بيت فلان بمعنى آل فلان، وهو تعبير عن عائلة أو عشيرة صغيرة مستمرة عبر عدّة أجيال[1].

الفكرةُ استوقفته، فتساءل عن مدى ثبات مفهوم المنزل عند العرب مقارنةً بالغربيين، واختلاف معناه عن معنى العائلة.

---

(1) صغنا هذه الفقرة بالاستناد إلى فكرة وردت في تقديم د. رضوان السيد لكتابي *"البيت السوسيولوجيا واللغة والعمران: دراسة لسانية تطبيقية"*، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2017)، ص 14-15.

عقله الغربي حدا به إلى عقد مقارنةٍ بين نمطي ودلالتي السّكن الـــلذين عاينهمـــا وخبرهما في الوقت عينه. فرأى أنّ المنزل -بحدّ ذاته- غير ثابت في الشرق، على عكس ما هو الحال في الغرب. يفصح القول: في الإسلام التقليدي، يختلف معنى المنزل عن معنى العائلة. ولا شك أن لا غنى للعائلة عنه، إلّا أنّه لا يشكل ركنًا أساسًا من أركانها. ومن الناحية القانونية، ينظّم القرآن الكريم العلاقات الزوجية، وليس "كيفية تأسيس المنزل". وفي الحقيقة، حتّى لو "كان اندماج المسلم بصفته فردًا في العائلة ضروريًا [...]، إلّا أنّ أحكام القرآن الكريم لا تركز أبدًا على تعريف فعلي للعائلة بحدّ ذاتها، لا بل تقبل بها بحسب ما كانت عليه قبل الإسلام، على الأقل بصيغة نظام الأبوّة وبمفهوم القرابة بالعصب [...] ويرتبط ذلك بما يلي: مكانة قائد المجموعة [...]، وسلطة الإخوة والأعمام وآخرين، ومتانة علاقة أفراد المجموعة فيما بينهم، وروابط الدم المنبثقة عن ذلك". لا نفصّل أكثر، فقد سبق لنا تناوله في الكتاب.

مونتاي مفنّدًا رأي رينان في خاتمة كتاب "الفكر العربي"

رؤيته التثمينية للعالم العربي، وحضارته، حضرتا بجلاء في أغلب نتاجه الكتابي. فقد شاء أن تحمل خاتمة كتابه *"الفكر العربي"* رأيًا خلافيًا للكاتب والأديب والفيلسوف أرنست رينان، ما أغفله، فاستعاده بعد حين ليكتب مناقشًا ومفنّدًا إياه. يقول: "في 23 شباط 1862، تحدّث أرنست رينان، في درس افتتاحي ألقاه في الكوليج دو فرانس عن، "إسهام الشعوب السامية في تاريخ الحضارة". ولا تزال حتّى اليوم تُقرأ هذه السطور بذهول: "يتمثل حاليًا الشرط الأساس لتمكين الحضارة الأوروبية من الانتشار، بتدمير كل ما له صلة بالسامية الحقّة، تدمير سلطة الإسلام الثيوقراطية، لأنّ الإسلام لا يستطيع البقاء إلّا كدين رسمي، وعندما يختزل إلى وضع دين حرّ وفردي، فإنه سينقرض [...] هذه هي الحرب المستدامة، الحرب التي لن تتوقف إلّا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤسًا، أو يرغمه الإرهاب على أن ينتبذ في الصحراء مكانًا قصيًا. الإسلام هو النفي الكامل لأوروبا، الإسلام هو تعصب لم تكد تعرف مثيله إسبانيا في زمان فيليبي الثاني أو إيطاليا في

زمان بيوس الخامس. المستقبل، أيها السادة، هو إذن لأوروبا ولأوروبا وحدها. ستفتح أوروبا العالم، وتنشر فيه الدين الذي هو الحق والحرية واحترام البشر، هذا الاعتقاد مفاده أنّ شيئًا إلهيًا ما موجود في صلب الإنسانية." وقد يخفف أيّ تعليق من حدّة هذا النص، الذي عاش كاتبه في ظل الإمبراطورية الثانية ونشر في السنة التالية كتاب "حياة يسوع" (Vie de Jésus)، وكان له صدى كبير. ولا أزال مقتنعًا أكثر من أيّ وقت مضى أنّ سبب الويلات التي يقاسيها عالمنا ومجتمعنا وحياتنا هو الجهل، جهل الآخر، "المختلف". ويفضي هذا الجهل مباشرة إلى عدم الفهم والاحتقار والكراهية والموت. لذلك، نحتاج جميعًا إلى أكبر عدد ممكن من المفاتيح لندرك أنّ فاليري كان على حق، عندما قال: "لنغتني من اختلافنا المتبادل!". باريس، في الأول من آذار 1987.

وتعليقًا على ما أورده مونتاي في معرض الرد على مقولة أرنست رينان، لاحظنا أنه تعمّد تسليط الضوء على موقف لافت، أدلى به هذا المؤرخ، رغم عدم توافقهما حول الموضوع الخلافي المثار. عالم اللغة رينان جاهر به في رحاب صرح علمي عريق منذ عقد ونيّف (1862)، متحاملًا على الإسلام، الذي رأى فيه عدوًا محتملًا لأوروبا والغرب. فجرّده من عقلانيته ومدنيته ووسمه بالتعصب، واعتبره "النفي الكامل

لأوروبا"، ومرادفًا لـ"الاستخفاف بالعِلم"، ووضع جانبًا قوله المحق "لنغتني من اختلافنا المتبادل!" كما شاء أن يذكّره المؤلِّف. أرادها مونتاي مناسبةً ليركّز على ثوابت جوهرية ثلاثة، ينبغي ألا تغيب عن الأذهان: القبول بمبدأ الاختلاف، ودعوة كل الديانات السماوية إلى الحق والحرية واحترام البشر، والغنى الفكري والروحي للبشرية. ناقش رأيًا مجحفًا، ودحضه، مستحضرًا للمدارك ذيولَ الجهل المتعمد للآخر "المختلف"، لا بل تجاهل حضوره في المشهد الحضاري، وذاك الإنساني الإيماني. وما ترددَ في التنبيه إلى ما يستجرّه على صاحبه من تبعات عدم الفهم والاحتقار والكراهية والموت.

"كفن النار"... في وداع "الشيخ الرائع"

الكتاب الرابع المستعان به لرفد القارئ المهتم بمختارات من كتابات مونتاي الإبداعية، وتعريفه إلى أسلوبه المأنوس، الأشبه بـ"السهل الممتنع"، يتمايز عمّا سبقه. فقد وضعه خصيصًا بادرة وفاءٍ للمستعرِب لويس ماسينيون، صديقه ومعلّمه الروحي. وهو الثاني ضمن مؤلفاته، الذي تمحور حول اسم علم معروف (الأول كان *"لورنس العرب"* وصدر عام 1987). نشر هذا الكتاب عام 1987، تحت عنوان *"لويس ماسينيون (1883 - 1962) كفن النار"*. وشائجُ الصداقة التي ربطت بين شخصيهما أثّرت -على ما سيبدو للقراء- في مساريهما، ورسّخت علاقاتهما أكثر فأكثر. فمونتاي عرفه عن كثب، وعاصره وحاوره واستزاد من علمــه ومعارفه، على مدى ما يقارب الربع قرن (1938-1962). كان ورفيق دربه جاك بيرك يطلقان عليه كناية (الشيخ الرائع).

يقول في مفتتح الكتاب: "أرغب في الكتابة – ولا نعلم حقيقةً من سيقرؤنا - عن امرئ فريد من نوعه، ما عادت عبقريته المضطربة تسمحُ لي أن أكون على ما أنا عليه" (ص 9).

جملةٌ استهلالية موجزة، كافية ووافية، يسطّر فيها رؤيته الكلية وتلك التثمينية لمعلمه وملهمه الذي غيّره، على ما يبدو، في الصميم. يعتصره الألم الدفين حينما يكتب: "لم أشارك في الاحتفال بمرور مئة عام على ولادة ماسينيون، بالرغم من أنني كنت أمتلك كل الصفات المطلوبة كي أُدعى إلى الاحتفال". جملةٌ بالغة التعبير تنطوي على أسًى ممّن تجاهلوه فغيّبوه عن استحقاق كان الأَوْلى بحضوره. يعزّي نفسه، فيكتب: "وعلى أي حال، فلست الوحيد الذي غُيّب عن احتفالية تكريم أستاذه". وللعلم فهو الذي كتب، بعونٍ من ماسينيون نفسه، سيرةَ حياته التي أُدرجت في "مقدمة" أضمومةِ مقالاته المنشورة في كتاب بعنوان *"كلمة الشرف"* (1962).

هي شهادةٌ مؤثرّة وملتهبة، تروي قصةَ التزام ماسينيون ومونتاي كليهما في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. وهي في آنٍ فرصة مؤاتية للحديث عن علاقات فرنسا بالجزائر والمغرب ومناطق أخرى ذات أغلبية سكّانية مسلمة، [قُدّر لكليهما العيش والعمل فيهما، والتآلف مع ثقافة وتقاليد ولغة أهاليهما]. وتسنى لمونتاي أن يسلّط بلباقة مصحوبة بحماسة، الضوءَ على روحانية صديقه ماسينيون[1].

(1) https://www.persee.fr/doc/thlou_0080-2654_1989_num_20_2_2372_t1_0253_0000_2

ويكتب ه. بارينيي مقرّظًا الكتاب: "هو مؤلَّف جيد التوثيق، لا يمكن لأيّ باحث يتجاسر على الكتابة عن ماسينيون أن يتغاضى عنه". ويتابع بالقول: "مونتاي قرأ كل ما كُتب عن ماسينيون بعد وفاته"، ويضيف: "إنها واحدة من أفضل المقاربات لحياة ماسينيون الروحية التي ظهرت في السنوات الأخيرة، بقلم "شاهد" [موثوق] اعتنق الإسلام". ملحوظة أخيرة دالّة، تخصّ مونتاي نفسه هذه المرة، وهي أنه رفض على الدوام استخدام مصطلح "الاهتداء" conversion، في معرض الكلام عن اعتناقه الإسلام.

مختارات مما كُتب عنه
من قبل باحثين معتبرين

بُعيد وفاة مونتاي، كتب تلميذه الباحث الأنثروبولوجي الجزائري مالك شبل كلمات رثاء، ثمّن فيها عطاءاته وعدَّه "أستاذ مدرسة الإسلاميات الفرنسية"[1]. كما أشار إلى مؤلَّفاته التي جاوزت الثلاثين، وضمّت مجموعة أعمال أساسية تتمحور حول المجال العربي الإسلامي، وحققها في الربع الأخير من حياته المديدة. ولاحظ أنها استرعت الانتباه، ليس لأنها كانت الأفضل صنعةً، بل أيضًا لأن الناشرين أدركوا أن الكتاب الذي يُمهره بتوقيعه يُقدَّرُ لدقته، مثلما للمعرفة المتراكمة التي يختزنها بين دفتيه. لم يُؤثر عنه تفضيله الكتابة في مجال دون آخر. فشغف الكتابة ترافق عنده مع قراءة مثابرة لروائع كبار الشعراء والكتّاب، أمثال: أبي نواس وحافظ الشيرازي وابن خلدون.

(1) Vincent-Mansour Monteil, un maître de l'École française d'islamologie, Le Monde, le 03 mars 2005, par Malek Chebel, anthropologue.

ننتقي مختاراتٍ مما كُتب عنه من قبل باحثين معتبرين، مستهلين بمقال لمالك شبل منشور في مجلة Jeune Afrique بتاريخ 2005/3/22. ثم نتطرق إلى مقالٍ آخر له نشرته صحيفة لوموند بتاريخ 2005/3/3، عرّف فيه بأبرز المحطات المضيئة في مسيرة أستاذه المعرفية. كما نشر له موقع "أمّة"، مقالًا ثالثًا بتاريخ 2005/3/14[1]. نُدرج مقتطفات من هذه المقالات، ومن مقال الباحث صادق سلاّم الموسوم "من الشغف بالعرب إلى الإيمان بالإسلام".

فانسان منصور مونتاي أستاذ مدرسة الإسلاميات الفرنسية

البروفسور الملْهَم والشاعر الشيرازي والصديق الوفي، الذي اعتنق الإسلام باسم فانسان منصور مونتاي، أسلمَ الروحَ عن 91 عامًا. عَبرَ طوال سنوات عمره تخومَ العالم العربي، وطاف في بلاد الإسلام، بدايةً تحت راية الجيش الفرنسي، ومن ثمّ بصفته باحثًا دارسًا ومنقّبًا، يشاهد ويعاين ويستمع ويدوّن ويقارن ويستخلص، ولا يكلّ أبدًا ولا يملّ. كان بامتياز أحد العلماء الأكثر غزارة إنتاجية في مجاله العلمي، والأكثر رزانة بين أقرانه في آنٍ. بكتاباته الموسومة

(1) https://oumma.com/vincent-mansour-monteil-1913-2005-le-dernier-des-grands-orientalistes-francais/

بشفافية مُستساغة، وبأساليبه المأنوسة وعباراته الدقيقة والموفقة، المستندة إلى معرفة عميقة بالنفسية العربية، والمعطوفة على لطفـه وحُسن تصرّفه السابقين لعصره، كان مونتاي فخرَ "اتّحاد أنثروبولوجيي المستعمرات" و"إداريي الجيش"، الهيئتين المهجورتين والمهملتين في الوقت الحاضر.

المرحلة الأولى من المسار المهني لهذا الجندي اللامع، المولود بتاريخ 1913/5/27 في بلاّك (Bellac (Haute-Vienne، خوّلته أن يجوب بخطًى واسعة الأراضي البِكر لأفريقيا الشمالية، وصولًا إلى دكار، حيث أقام منتصف الستينات.

وفي معرض تسويغه اعتماد مونتاي اسمًا -أولًا- ذا صبغة إسلامية، يلاحظ شبل أن من ضمن من حمل اسم منصور، أو "المنتصر"، صوفـيٌّ فارسي [ذائع الصيت]، هو بلا ريب الأكثر رمزية من بين الصوفيين أجمعين. ويريد الحسين ابن منصور الحلاج (857- 922). وهذا ما يفسر اصطفاء مونتاي هذا الاسم منذ عام 1977. وفي الواقع فالحلاج أصاب شهرةً في فرنسا على يد لويس ماسينيون (1893-1962)، أي المعلّم المفكّر لمدرسة الإسلاميات الفرنسية، التي انتمى حتمًا إليها مونتاي.

يقول شبل: "هذا التدرّج ليس بلا مقابل، وقد شعرتُ به منذ استقباله الأول لي في شقته الواقعة في شارع جاكوب

بباريس، حينما كنا نضع اللمسات الأخيرة على أطروحتي التي ناقشتها عام 1982 في حضوره. في ذلك اليوم كلمني هذا الذي كنا نسمّيه يومها فانسان مونتاي عن لويس ماسينيون وجاك بيرك". وفي كتاب "كلمة شرف"[1] الذي يستعيد عدّة مقالات للويس ماسينيون، والذي كتب مونتاي تقديمًا له، يتابع شبل بالقول: "عثرتُ على تلك الجملة المعمَّاة للصوفي الحلاج التي سمعتُها يومًا من أستاذي، وأعدُّها جملة مفتاحية: "ركعتان في العشقِ لا يصحُّ وضوؤهما إلا بالدّمِ"[2]. ويختم كلامه مستعينًا بصور مجازية: "وبذلك فإن اعتناق مونتاي الإسلام يبقى بمنزلة خاتمٍ من بِلَّورٍ جَندَلي"، كما إنه كذلك "كلمة منه، وسرٌ محفوظ بعناية فائقة".

فانسان مونتاي أو المنصور باللّه الشافعي، عالم لامع ورصين[3]

رحل في 27 شباط/فبراير 2005 أحد أهمّ مدرسي الإسلاميات في فرنسا، وكاتب أعمال مهمة، تناولت المنطقة

(1) كتاب صغير من سلسلة 10/ 18.

(2) هي آخر جملةٍ رنانة أطلقها الحلاج، حين سألوه عن مبتغاه الأخير قبل أن يجزّوا رأسه.

(3) Malek Chebel: Vincent-Mansour Monteil, savant lumineux et discret, Jeune Afrique Mar 22, 2005

العربية وديار الإسلام. وفي هذا المقال يذكّر مالك شبل[1]، أحد طلابه، بمسار هذا الشخص الاستثنائي.

لم يُخلف فانسان منصور مونتاي يومًا بوعده ولم يتذمر أبدًا. رحل في باريس، تاركًا الكثير من الأعمال، منها أبحاث أحادية الموضوع، ودراسات وشهادات وتمهيدات لكتب وترجمات وسواها. ومن بين أكثر من ثلاثين عملًا تقريبًا، تبرز تلك التي كَتبها في الربع الأخير من حياته (العودة إلى المراجع)، لا لأنّها الأفضل فحسب، بل لأنّ الناشرين عرفوا جيّدًا قيمة الأعمال التي كتبها من حيث الدقّة والمعارف الكثيرة التي تقدمها. وبالطبع، يُعدّ كتاب *"الإسلام في أفريقيا السوداء" (L'Islam noir)* متجذرًا في ذاكرة الجميع.

يُعدّ انضمامه إلى صفوف الجيش الفرنسي مغامرة، ستطبع مذّاك مختلف مراحل حياته. كان بكل تأكيد "مستعدًّا للخدمة"، بما أنّه وُلد في العام 1913، أي في جوّ القرن المنصرم، الذي شهد الحرب الاستعمارية والغزوات وأشكالًا أخرى من سياسات انتزاع الأراضي. ولطالما عُرفَ عنه أنه حافظ على انضباطه وشرفه وموثوقيّته عند ارتدائه الزي العسكري، وذاك المدني، على حدّ سواء.

---

(1) مالك شبل. أنثروبولوجي ومفكر وكاتب، مؤلّف *"القاموس العاشق للإسلام" (Dictionnaire amoureux de l'islam)*، منشورات بلون. 22 آذار/مارس 2005.

الآفاق الشديدة الخصب والتنوع التي جابها في البلدان التي قادته مهامّه الوظيفية إليها، مكّنته من أن يتقبل، برحابة صدرٍ، كلَّ نمطِ حياةٍ عاشه، ويتفاعل مع كلِّ هويةٍ عرفها على التوالي، لينمو ويحقق ذاته الباحثة أبدًا عن الحقيقة الإنسانية. ومن مفاعيل هذا الترحال أنّ هذا الجندي الماهر، والضابط الهجّان في الصحراء، والمراقب التابع لقوات الأمم المتحدة في فلسطين في حزيران/يونيو 1948، أصبح تدريجيًا مفكرًا رفيع المستوى، وثابتًا أكثر فأكثر على الأسس والثوابت ومراكز الاهتمام، التي لطالما كانت محطّ انشغاله المعرفي، وتآزرت لتشكيل هويتّه الفكرية الرحبة الآفاق التي عرفه بها المجتمع العلمي.

ويُذكر، على سبيل المثال، أنّه أظهر تميّزًا مبكرًا عن غيره، عندما شرع مع زميله شارل سوفاج، في أواخر الأربعينات، في كتابة دليل شامل نوعًا ما عن النباتات والحيوانات في الصحراء الغربية. ومن بين كل الباحثين الذين ركّزوا في دراساتهم على المغرب وغرب أفريقيا، أليس مونتاي الوحيد الذي كتب عن تعددّ رفيق التزاوج لدى طائر الحبارى، وعن الفرق بين المها والغزال وبين الغزال والأُرويّة (نوع من الماعز)؟

وفي إحدى زياراتي له، تحدّث إلي عن أستاذ متقاعد

وبّخه مرّة بمودة ظاهرة، نوعًا ما، في صوته، ذلك لأنه يعتقد أنّه لا يمكن فهم الشرق تمامًا من دون معرفة واحدة من أكثر لغاته الحية، مثال اللغة البهلوية. فمَن يهمّه اليوم إن تكلّمَ "متخصصٌ" في الإسلام باللغة الفارسية أو التركية أو الأمازيغية، وإن زار كراتشي، أو جرّبَ الخشخاش الذي يزرعه المزارعون الأفغان، أو مرّ في إسلام آباد قبل الحصول على ألقاب طويلة؟

بعدما توقف عند مفهوم الصداقة التي تعدّ أساسية بالنسبة إلى مونتاي، وهو "مَن لا يتوقف عن استعمال مفردات تعود للدين المسيحي، وتتمحور حول "الاعتراف"، يستدرك شبل بالقول: "لا بد من أنّني نسيت بعضًا منها: الذاكرة، وإكرام الوالدين، والعطف، والتأمل، والمودة، والإخلاص-الخيانة، والندم، والتشفّع، والتعاطف، والكلام". ولا يفوته أن يضيف إليها "كلمة الشرف أو الفتوّة، والالتزام، وخصوصًا العهد". ويغتنمها فرصة لتذكيرنا بأن *"العهد"* (*parole donnée*) هو عنوان اصطفاه لكتاب يضمّ مجموعة نصوص كتبها لويس ماسينيون، وجمعها مونتاي حينما كان مستشارًا ثقافيًّا في جاكرتا، تكريمًا لكاتم أسراره وأخيه الكبير ومعلمه الروحي في الوقت عينه. يومها كتب: "يظن لويس ماسينيون أنّ علينا الوفاء "بالعهد" بين الإسلام وفرنسا. ويعتقد، إلى حدّ كبير، أنّ ارتباط

الناس ببعضهم البعض من خلال كلامهم هو شرفٌ لهم. ويتمثل ذلك في رأيه "بتعاطف" سامٍ، يكمن على الصعيد العالمي"، وهو بذلك أبعد ما يكون من "مجردَ وفاقٍ بين فرنسا والإسلام ".

يختم مالك شبل كلامه: "بهذه الطريقة، يُعرّف فانسان مونتاي، أو المنصور باللّه الشافعي، نفسه في أيّ مأدُبة روحية تجمعه بمحيطه. يشيدُ بخصاله، فيكتب: "هو مخلصٌ وصادق ورصين ومتنبّه، على نحو مفاجئ، للعلاقات الإنسانية، مثلما لتلك اللغوية والفكرية. وباختصار، ففي شخصه وتكوينه الكثير من صفات الصداقة الكلاسيكية المتماسكة، التي تعود نوعًا ما إلى العصر الفيكتوري؛ وأعني بها تلك الصداقة الخالصة التي التصق بها". ونظن أنه يعني بشهادته هذه صداقة عميقة، ما غابت يومًا عن سلوكيات مونتاي.

فانسان مونتاي، أو المنصور باللّه الشافعي (1913-2005): آخر المستشرقين الفرنسيين العظماء[1]

14 آذار/مارس 2005

في عام 1938، وقبيل مغادرته إلى المغرب للالتحاق بوحدة الهجّانة العسكرية التي عُيّن فيها، زار الشاب فانسان مونتاي،

(1) https://oumma.com/vincent-mansour-monteil-1913-2005-le-dernier-des-grands-orientalistes-français, 14 mars, 2005.

خرّيج كلية سان سير العسكرية، العالِم لويس ماسينيون. وبعد أن أعطى المستعرِب العظيم جملة نصائح للضابط الشاب عن السلوك المناسب في تعامله مع المسلمين، قال له باللغة العربية: "وطني الروحي هو العالم العربي...".

تركت شهادة ماسينيون[1] بالحسين بن منصور الحلّاج،[2] أثرًا كبيرًا في حياته العسكرية، مثلما في أبحاثه في علم الإسلاميات. يؤثر عنه أنه خصص أيام الآحاد في الكلية العسكرية لقراءة آيات القرآن الكريم، باللغة العربية، وتفسيرها.

---

(1) هو قرينُ الحلاج الصوفي والمعرفي، الذي عني بالحسين بن منصور الحلّاج عناية كبرى، وأثبت في رسالة الدكتوراه عنه أصالة التصوف في الإسلام.

(2) لا يكاد يذكر اسم ماسينيون إلا مقرونًا بالتصوف الإسلامي، وبِعلم من أكبر أعلامه هو أبو منصور الحلاج، عُني ماسينيون بالحلّاج عناية كبرى، وحصل على الدكتوراه من السوربون (1922) عن رسالته الفريدة «آلام الحلاج ـ شهيد التصوف الإسلامي» التي تقع في أكثر من ألف صفحة، في أصلها الفرنسي (ترجمتها العربية في 720 صفحة من القطع الكبير)، وهي الرسالة التي أثبت فيها أصالة التصوف في الإسلام، واستكمل بحثه تاليًا في نشأة المصطلحات الفنية في التصوف الإسلامي. ينظر: إيهاب الملاح، ماسينيون الفرنسي.. قرينُ الحلاج الصوفي والمعرفي!، 24 أكتوبر/تشرين الأول، 2019.

https://www.qposts.com.

كما التحق في الوقت نفسه بمدرسة اللغات الشرقية الحيّة بباريس. أقبل على تعلّم لهجات المناطق التي خدم فيها. كما أظهر اهتمامًا ملحوظًا للتعرّف عن كثب على تقاليد سكانها وعاداتهم. وعلى غرار ضباط المكاتب العربية الأوائل، ركّز في دراساته على قبائل جنوب المغرب. ويُذكر أن الجنرال أوجين دوما Eugene Dumas، ممثل لويس أليكسي دي ميشال Louis Alexis Desmichels (ضابط الاتصال سابقًا لدى الأمير عبد القادر)، هو من أسّس هذه المكاتب في الجزائر عام 1844. وشكّل كتاب الضابط المستعرِب أوجين دوما بعنوان *"الحياة العربية والمجتمع الإسلامي" La Vie Arabe et (la Société Musulmane)* نموذجًا يُحتذى بالنسبة إلى مونتاي. وأذكر ما قاله لي عندما أبلغته أنّ دار سلاتكين ستعيد طبع هذا الكتاب في سويسرا: "اشترِ الكتاب، مهما كلّف الأمر". ثم شرح لي أمثالًا شعبية يتذكّرها عن ظهر قلب، جمعها دوما من شيوخ غرب الجزائر.

وعند هزيمة الجيش الفرنسي في حزيران/يونيو 1940، كان رد فعله عنيفًا، لذلك أدخل سجن كليرمون فيران إلى جانب بيار منديس فرانس[1]. وبعد خروجه من السجن،

(1) رئيس وزراء فرنسا 18 (يونيو/حزيران 1954 – 23 فبراير/شباط 1955).

استفاد المكتب المركزي للاستخبارات والعمل (BCRA)، وهو جهاز الاستخبارات التابع لفرنسا الحرة، ويرأسه جاك سوستال، من معارفه باللغات وبعلم الأعراق. وفي عام 1948، أصبح عنصرًا في الوحدة الفرنسية التابعة للأمم المتحدة الموفدة إلى فلسطين. نستدرك لنشير إلى أن المعلومة المتعلقة بعمله مع (BCRA)، غير دقيقة، وقد دحضها الباحث صادق سلاّم في شهادته المثبتة في الكتاب.

وفي شباط/فبراير 1955، عُيّن رئيس المكتب العسكري للحاكم العام الجديد في الجزائر جاك سوستال. وقبل توليه منصبه في العاصمة الجزائرية، سافر إلى العاصمة التونسية ليقابل مصطفى بن بولعيد، قائد جيش التحرير الوطني الجزائري في الأوراس، الذي أُلقي القبض عليه عند الحدود التونسية الليبية. وأكّد له هذا اللقاء ما كان مقتنعًا به، أي أنّ حلّ الصراع الجزائري سياسي من دون أدنى ريب. فأثار ذلك حفيظة ضباط في جهاز "العمل النفسي" (Action Psychologique) في الجيش، العائدين من الهند الصينية، بعد أن قرؤوا لماو تسي تونغ، وأعدوا عقيدة "الحرب المدمرة". تمكّن مونتاي من أن يفرض على سوستال وجهةَ نظره التي تميل إلى اعتماد "سياسة الحوار"، والتي تتمثّل بالإفراج عن الأشخاص المشتبه بهم، ومن بينهم القادة المركزيّون أمثال بن يوسف بن خدة،

وبمقابلة كبار العلماء أمثال توفيق المدني وخير الدين والعقبي، ناهيك بتطبيق المادة 56 من قانون 1947 التي تنص على استقلالية شعائر العبادة عند المسلمين... إلّا أنّ سوستال سرعان ما تخلّى عن سياسة الانفتاح هذه، في أعقاب أحداث 20 آب/أغسطس 1955، في الشمال القسنطيني، مكرّسًا بذلك رجحان كفّة أنصار التسلّط العسكري. فاستقال مونتاي على الرغم من رفض الحاكم خطوته هذه. وكتب سلسلة مقالات في مجلة "فكر" (Esprit) باسم فرانسوا سارازان المستعار. ومن دون أن يستبعد فكرة استقلال الجزائر منذ تلك الفترة، تمايز عن معلّمه ماسينيون الذي كان يكتفي بإبداء الاحتجاج من خلال الصوم والصلاة، وإصدار البلاغات الشديدة اللهجة ضد القمع.

وبعد انضمام جاك بيرك إلى الكوليج دو فرانس في كانون الأول/ديسمبر 1956، اعتاد مونتاي أن يقيم معه عشاءً مرّةً في الشهر لتحليل أزمات الاستعمار، بحضور معلّمهما المشترك ماسينيون، الذي كانا يُطلقان عليه اسم "الشيخ الرائع". وقد نشـــر مونتاي كتاب *"المسلمون في الاتحاد السوفيتي"* *Les Musulmans Soviétiques)*، منشورات سوي Seuil، 1956)، ممّا دفع الجنرال ديغول ليكتب إليه رسالة ورد فيها "يبدو أنّ كل شيء على ما يرام بالنسبة الى الإسلام، إلّا أنّ المشكلة

الكبـــرى تكمـــن في مستقبله". وبعد أن نشر كتاب *"الضباط"* (*Officiers*، منشورات سوي، 1957)، أرسل له الجنرال ديغول رسالة أخرى يؤيّد فيها انتقاده امتثالية جزء كبير من كوادر الجيش الفرنسي. فدخل بعد ذلك السجن المؤقت لمدة 60 يومًا، وبعد خروجه منه، غادر صفوف الجيش ليحلّ مكان بيرك في رئاسة مركز تعلّم وتطوير اللغة العربية المعاصرة الذي أنشأته وزارة الخارجية الفرنسية في بكفيا – لبنان. وأعدّ أيضًا – بالفرنسية، أطروحة عن اللغة العربية المعاصرة، وناقشها في السوربون عام 1985، ونُشرت بعد سنتين ضمن منشورات "كلينكسييك" (KLINCKSIECK).

وبعد أن كان ملحقًا عسكريًا في إندونيسيا (تولّى المنصب عينه في إيران عام 1950)، عُيّن رئيسًا للمعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء في داكار، حيث نشر أشهر كتاب له *"الإسلام في أفريقيا السوداء"* (*L'Islam noir*). وبعد عودته من أفريقيا، درّس الإسلاميات في جامعة باريس السابعة، وحلّ مكانه في وقت لاحق نجم الدين بامّات. وفي عام 1976، أشهـــر إسلامـــه في مقـــال نُشـــر في مجلـة "فرنسا-الدول العربية" (France-Pays Arabes)، واعتمد اسمَين عربيَين، ألا وهما المنصور والشافعي، متأثرًا بفقهاء المذهب الشافعي، الذين عرفهم عن قرب في إندونيسيا.

ويُعدّ كتاب *"إرهاب دولة إسرائيل"* (*Le Terrorisme de l'État d'Israël*) الذي نشره في عام 1978، سبب عداوته مع كثيرين، والأمر سيّان بالنسبة إلى ناشر الكتاب غي أوتيه، اليهودي العلماني والناقد للدولة العبرية. فشرح مونتاي قائلًا: "من الممكن أن تجمعنا صداقة بالكثير من اليهود (وينطبق ذلك عليّ)، وأن ندين معسكرَي أوشفيتز وتريبلينكا للإبادة والاعتقال من دون أي تحفّظ، وأن نعتقد في الوقت نفسه أنّ لا علاقة لذلك بإسرائيل". وثمة استشهاد بموقفه ورد في كتاب كارل لنكي Carol lancu الصادر عام 2003 حول *"الأساطير المؤسِّسة للاساميّة من القِدم حتى أيامنا الحاضرة"*[1]. فقد

(1) *"les mythes fondateurs de l'antisémitisme; de l'antiquité à nos jours"* by Carol lancu, Paperback, 189 Pages, Published 2003. P 40.

https://www.gettextbooks.com/isbn/9782708908062.

صدر عام 2017 عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في بيروت، ترجمة كتاب يحمل عنوان: *"رهاب الإسلام ورهاب اليهودية: الصورة في المرآة"* الذي ألّفه إيلان هاليفي الصحفي والكاتب ورجل السياسة اليهودي الفلسطيني، والذي يعتبر من الشخصيات اليهودية النادرة الموجودة في منظمة التحرير الفلسطينية. ترجمة الباحثة سناء الصاروط، ضمن سلسلة ترجمان. 2020: //www.dohainstitute.org/ar/BooksAndJournals/Pages/Islamophob https ia . تاريخ الدخول، 2020/5/17.

خصّص مدير معهد الدراسات العليا لليهودية فصلًا من كتابه، استشهد فيه بمقالته النقديّة ضد الصهيونية التي برزّ فيها شعار "الصهيونية شكل للعنصرية".

اتخذ طوال سنيّ رشده موقفًا يشبه موقف ضباط المكاتب العربية، (وقد خصّص لها دراسة نشرها في مجلة Esprit في كانون الأول/ديسمبر 1961). ووصف بيرك هذا الموقف "بالمزيج الغريب بين حب الوطن، أي فرنسا، ودعم المدن العربية بشكل كامل". وهو بذلك يكون قد أكملَ، على أفضل وجه، التقليدَ المرموق الذي كان دومًا مصدره. كما أنه آخر المستشرقين الفرنسيين العظماء الذين يعدّون دراسة الإسلام "واقعًا اجتماعيًا وتاريخيًا شاملًا".

ويستحق أن تُتلى على روحه صلاة التراويح، التي يُطلب في نهايتها "بركات التوراة والإنجيل والقرآن"، ومن ثم يُسألُ الله أن يكون "غفورًا مع الذين علّمونا". وفي الواقع، فمونتاي علّم أجيالًا من المسلمين وغير المسلمين. ولا تزال مؤلفاته المهمة تساعد المسلمين الشباب في فرنسا على التعرف أكثر إلى الإسلام، وجلُّ ما يطلبه هؤلاء هو معرفة هذا الدين، لكن ذلك يتصادف للأسف مع تراجع علم الإسلاميات التقليدي.

من الشغف بالعرب إلى الإيمان بالإسلام - صادق سلاّم[1]

خصّ الباحث الأنثروبولوجي الجزائري صادق سلاّم فانسان مونتاي بمقال: de l'arabophile à l'adhésion à l'islam. العبارة الاستهلالية للمقال تختصر بكلمات معدودات مسارَ حياة حافلة بالترحال المعرفي، وتستحق التبصّر والتفكّر في حيثياتها. مهّد سلاّم للكلام عن صاحب هذه الشخصية الفكرية، حمَّالة الأوجه بامتياز، بالقول: ثمة تزهّدٌ صوفي حقيقي يحرّك أولئك الذين يقاتلون في سبيل إحقاق الحق. هو على "ملتقى الديانات"، ويشهد له وعليه تاريخُ فانسان منصور

---

(1) صادق سلاّم باحث جزائري معروف متخصص فى الدراسات الإسلامية، له عدّة مؤلفات، منها: الإسلام والمسلمـون في فرنسا (1987)، أن تكون مسلمًا اليوم (1989)، وشارك فى برنامج "تعرف إلى الإسلام" الذى بثّه التلفزيون الفرنسى. صدر له عام 1987 كتاب بعنوان *"فرنسا ومسلموها.. قرن من السياسة الإسلامية لفرنسا: 1895-2005"*، الترجمـــة العربيـــة للكتـاب قامت بها د. زهيدة درويش جبور ضمن مشروع "كلمة" للترجمة التابع لهيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة. قرأ الكاتب الظروف الموضوعية السياسية والاجتماعية التى أسهمت فى تشكّل تصوّر عن الإسلام وعلاقته بالغرب عمومًا، وسلّط الضوء على محطاتٍ مشرقة في تاريخ الإسلام فى فرنسا، لطالما بقيت طيّ النسيان.

https://www.albawaba.com/ar/.2012/9/13 .

الرئيسية/أدب وثقافة/ تاريخ المشاهدة 2020/5/25.

مونتاي. هذا اللاأدريّ وصديق المسيحي ماسينيون، أدركه معتنقًا الإسلام.

المقال تضمّن سبع فقرات: واجبُ مغادرة أفريقيا، السّمة الاستعمارية للصهيونية، مونتاي وسوستال، خلال تمرّد الـ OAS، المُعجب بإبن بطوطة، الحذر من الإعلام، ومن معرفة الآخرين إلى الإيمان بالإسلام[1].

الفقرة الأولى موسومة واجبُ مغادرة أفريقيا، وتتناول أوجهًا من عمله في أفريقيا، وتعرض مسوّغات الاستعانة به وبزميله جاك بيرك في الجزائر، وتبسط ظروف تعرّفه إلى الجنرال شارل ديغول، وتوطيده علاقة معه عن طريق التراسل وتبادل وجهات النظر. تُستهلُ الفقرة بالإشارة إلى أن الحاكم العامّ للجزائر جاك سوستال كلّف عام 1955 الجنرال بارالنج بتنظيم "الأقسام الإدارية المتخصصة" (sas). وطُلب إلى ضبّاط "الشؤون الجزائرية" محاولة إنقاذ النظام الكولونيالي، عن طريق إضفاء وجه إنساني عليه (بالأحرى ثقافي). ويستنتج الكاتب أن "هذا الكيان يُذكِّر بالأهمية –المنسية- لتجربة "المكاتب العربية" للإمبراطورية II في الجزائر".

---

(1) https://www.lamaisonislamochretienne.com/vincent.
النص الكامل للمقال مُدرج في هذا الموقع. تاريخ الدخول 2020/5/24.

وقع الخيار على بيرك ومونتاي. فهذان المستعربان معروفان بإتقان اللغات المحلية، وهما متمكنان من مبادئ الفقه على المذهب المالكي (مختصر الفقيه المالكي خليل بن إسحاق الجندي)[1]، ويتمتعان في الوقت نفسه بروابط مع زعماء الجماعة، لذا أبديا على الفور رغبتهما في القيام بهذه المهمة.

في الفقرة عينها، يكشف سلاّم النقابَ عن "مُعلّمَي مونتاي". فيعلمنا أنه كان، على سبيل المثال، يعرض بشكل منتظم لأستاذه الأول، لويس ماسينيون، وقائعَ رحلاته الصحراوية على ظهر الجمل في جنوب المغرب، ويطلعه على أولى تحقيقاته الإثنوغرافية حول القبائل العربية–البربرية والمحكيات المحلية بطبيعة الحال. وفي شهر يونيه/حزيران 1940، يكتشف عبر أثير الإذاعة البريطانية (BBC) أستاذًا ثانيًا لم يكن على معرفة سابقة ووثيقة به. لفتته في شخص الجنرال شارل ديغول (خطاباته المذاعة) النبرة الوقورة والصوت الحازم والفصاحة

(1) ورد في موقع ويكيبيديا (مشاهدة بتاريخ 2020/5/24) أن "المختصر في الفقه" يعرف بـ "مختصر خليل"، وقد شرحه كثيرون، كما ترجم إلى الفرنسية. كما ورد في موقع "المالكي"
https://maliki.blogspot.com.2011
أن خليل بن إسحاق الجندي فقيه مالكي من أهل مصر، ولي الإفتاء على مذهب مالك. وذُكر أن المختصر يتضمن: كلمة في العقيدة وثلاثة أبواب هي: أركان الإسلام، الكبائر وعلامات البلوغ.

التي تذكّر بفصاحة لويس جوفيه. هذه العلاقة التي توطّـدت بينهما ستتسبب لاحقًا بزجّه في سجن كليرمون – فرّان، في الوقت نفسه الذي أوقف فيه السياسي المعروف بيار منديس– فرانس. سبق الكلام عن آراء الجنرال ديغول في مواضيع أثارها مونتاي، والتي ضمّنها رسائله، وردود مونتاي عليها. ويُسجّل لسلاّم أنه يدحض عنه تهمة العمل مع الاستخبارات التي أُلصقـت بــه زورًا. فبعكس ما كُتب في هذا الصدد، يشير الكاتب إلى أنه وضع معارفَه في خدمة "فرنسا الحرة"، من دون أن ينتمي إلى "المكتب المركزي للاستخبارات والعمل" (BCRA).

الملازم أول في مكتب "الشؤون الأهلية" استعاد بسهولة عبارة ديغول المشهورة، التي عرّف فرنسا من خلالها" هي إنجيل أخوّة الأعراق وتكافؤ الفرص"[1]. علاوةً على ذلك، شارك في الحرب الهندية الصينية برتبة رائد، على رأس كتيبة تضمّ عددًا كبيرًا من الجنود المغاربة، [وظلّ طوال حياته يشعر بتعاطف كبير تجاههم]. وكان يحب تقليد الطريقة التي ينطقون بها الفرنسية [أفراد كتيبة الرماة الجزائريين وكتيبة المشاة المغربيين، المحدودي التعليم]، بلكناتهم المختلفة العربية منها، والأمازيغية. ونستنتج أن الحسّ اللغوي المرهف ما فارقه يومًا.

(1) خطاب ألقاه في بريش – قسنطينة، ديسمبر/كانون الأول 1943.

بعدها تولى عدّة مناصب، منها المستشار الثقافي في طهران (1951)، والمستشار الثقافي في جاكرتا (1968) حيث أعطاه فقهاء شافعيون موافقتهم على كتاب *"المدينة الإسلامية"* لصديقه لويس غاردي Louis Gardet. وهنا نلاحظ أنه لا يبخل بتوظيف معارفه وشبكة علاقاته لمساندة زملائه علميًا ومعرفيًا. ويلفت سلاّم أن الأشهر القليلة التي صرفها في الجزائر العاصمة عام 1955، عضوًا في حكومة سوستال العسكرية، ستطبع مسارَ حياته.

نصرة القضايا العربية (فلسطين والجزائر مثالًا)، قولًا وفعلًا، شكّلت له هاجسًا حقيقيًا، ونهجَ عمل. ففي فقرة "مونتاي وسوستال"، يتوقف سلاّم عند موقفه من استقلال الجزائر ومجاهرته بالحلّ السياسي سبيلًا وحيدًا للخلاص. وكي يظهر للقارئ أن مواقفه السياسية تجاه قضايا العالم العربي اتّسمت بالوضوح والصلابة، وتجنّبت الكلام العمومي أو الملتبس، يقول: "وبالرغم من أنه كان قائد وحدة عسكرية (مقدّمًا)، فقد كان مناصرًا للحل السياسي للنزاع الجزائري. لذا طالب بانتهاج سياسة انفراج، واقترح سلسلة إجراءات للتهدئة، تكون قادرة على بعث الأمل". ومن جملة إنجازاته في هذا الصدد "تحرير عدد كبير من الموقوفين السياسيين (بن يوسف بن خدة، سعد دحلب، عبد الحميد مهري، محمود بوزوزو وغيرهم). كما

طالب بإطلاق مفاوضات مماثلة لتلك التي أجريت مع الحبيب بورقيبة". الاقتراح ما نزل بردًا وسلامًا على سوستال، الذي أجابه على الفور: "الجزائر ليست تونس". وذاك كان أول شقاق بين الرجلين، سيُستتبع بشقاقات أخرى. وهنا يدعنا الكاتب نكتشف أن المستشار المكلف بالتواصل مع المسلمين في كل الأنحاء –الذي كانه مونتاي يومها- انتهى بتقديم استقالته، تماشيًا مع "كلمة الشرف"، وعلى أثر [استشعاره]"راديكالية" سوستال، الذي عمد إلى مقارنة "الأقدام السود" بـ"شعب الأزتيك" (المكسيك) الإسبان، الذين كان صاحب السيرة يكنُّ لهم تعاطفًا كبيرًا.

خلاصة القول يوجزها سلاّم بالقول: إن "منظومة أعمال مونتاي ونموذجه يستحقان أن يقدَّرا من قبل كل أولئك الذين يرومون قطع العلاقة مع رؤى كاريكاتورية للإسلام، منشؤها شيطنةٌ مبالغٌ فيها، [وتحضر] لضرورات ممارسة الخوف. ولا يفوته أن يصوغ نصيحة ذات جدوى لمسلمي فرنسا الشبّان. فالراغبون منهم في التعلّم والتثقّف - من دون الحاجة إلى الذهاب إلى الشرق الأوسط، حيث يجازفون في التورط في مغامرات خطرة - ينتفعون في اكتشاف مونتاي مجددًا. وهذا في منظوره، من شأنه أن يسعفهم على الخروج من إطار ضيق، حيث يجد الإسلامُ ذاته مقتصرًا على مجرد مماحكاتٍ

يقوم بها "ممثّلون" يلقون تشجيعًا من "مؤسسة" الإسلام، وحيث تُقاسُ "الشرعية"، من الأعلى (فوق)، بعدد الأمتار المربّعة لقاعات الصلاة". وينهي بالقول: "قراءةُ مونتاي ستُقدّرُ أولئك الذين يرغبون في التمايز عن التلامذة – المصلحين لهذه الديانة المحبوبة بصعوبة، والذين يصوّرون لمراسلي التلفزة عند كل أزمة أنه يكفي أن نغيّرَ القرآن (الكريم)، كي نسير في الطريق القويم".

مسكُ الحديث إشارة لافتة، أراد منها الكاتب ربط مساره، وتثميـــن جهـده لتجديد النظر إلى مستقبل الإسلام في فرنسا – والغرب بالطبع- بضرورة القيام بخطوات عملية لتقويم وتعزيز وضع الدراسات الأكاديمية الإسلامية في معاهد فرنسا. لذا نقرأ معًا استنتاجه: إن نرجسية هؤلاء "المصلحين" تدفع بهم إلى أن يتحاشوا، بعناية، الإشارة إلى عشرات المثقفين من مسلمي فرنسا، أمثال مونتاي، الذين بمقدورهم أن يوفروا قاعدة جيدة لإعادة إطلاق الدراسات الإسلامية، التي يعود سبب أفولها إلى الإفراط في تسييس الدراسات الإسلامية لمسوّغات أمنية.

ثبت ببليوغرافي مختصر بأهم أعماله وبالمواقع الشبكية التي تخصّه أو تتعلّق به

يُذكرُ فانسان منصور مونتاي، فتحضرُ عناوينُ كتبه التي ربطت مضامينُها ومعالجاتها ومقاصدها الإسلامَ والسياسةَ باللغة والعمران والسوسيولوجيا. سنحت له ظروفٌ مؤاتية ليُصدر كتبًا رصينة، أبرزت رؤيته الثاقبة لتطور العالمين الإسلامي والعربي. سيرته الذاتية الشديدة الغنى والتنوع تبيّن أنه أصدر خلال ثماني سنوات (1949-1957)، ستة كتب، تراوحت مواضيعها بين نباتات الصحراء الغربية وحيواناتها وجِمالها، بلاد فارس والشاعر حافظ الشيرازي، والمسلمين السوفيات، قبل نشره كتاب *"العربية الحديثة"* (1960). وتُظهر عناوين كتبه ودراساته أن العسكري والسياسي اللذين أخذا حيزًا محترمًا من انشغالاته، ما غيّبا الاجتماعي واللغوي والثقافي والفكري عن مجمل أعماله.

منظومة كتبه الثلاثين التي نستعرضها بعجالة في هذه القسم، متوقفين عند ثلاثة منها *("التكنا" و"العربية الحديثة" و"الإسلام الأسود")*، تترجم انعطافًا مفصليًا في سيرته الذاتية. كما تعكس نزوعًا بحثيًا مستجدًا ترافق مع مروحة انشغالاتٍ فكرية متشعبة المواضيع، وسمت شخصيته "المدنية"، التي تبلورت سماتها أكثر فأكثر، بعدما وضع في الخمسينات حدًا

لحياته العسكرية. فمنذ أن اتخذ قراره الطوعي بالتخلي النهائي عن زيه العسكري، انصرف بدأب وشغف إلى تظهير معالم حيثيته البحثية الكامنة. ونريد قيامه بسلسلة أبحاث ميدانية تمحورت حول العالم العربي الإسلامي، وأسفرت عن مخرجات علمية، أبصرت تباعًا النورَ في مؤلفات رصينة.

الكتب التي رفد بها المجتمع العلمي، منذ عام 1948، بوتيرة متّسقة، جاءت نتيجة الخبرات العلمية والعملية التي راكمها طوال سنوات تجواله الوظيفي. فقد قيّض له أن يعبر تخوم العالم العربي وبلاد الإسلام، فتابع، عن كثب، شؤونه وشجونه وعايش حقبات تحولاته. وتسنّى له أن يدرس بعيني العالِم الأنثروبولوجي، وبعقل الباحث اللغوي المتمرّس، أطباعَ أهله ويتقصّى أنماطَ عيشهم، ويتعلّم، ما أمكن، لهجاتهم المحلية، ويرصد وتائرَ تبدّل أحوالهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

وكما هو معروف، وسبقت الإشارة إليه، فالبداية كانت تحت راية الجيش الفرنسي (خدمة شؤون السكان الأصليين، فضابطًا هجّانًا، ومراقبًا عسكريًا أمميًا، فملحقًا عسكريًا في سفارة بلاده في إيران وأندونيسيا، فملتحقًا مجدّدًا بالخدمة العسكرية في كوريا وفيتنام كليهما). ومن ثمّ واتته الفرصة الموائمة كي يعدّل أشرعته، فتعرفت إليه الأوساط العلمية في

بلاده والخارج، بصفته باحثًا رصينًا يُحسبُ له حساب، مثابر ولا يكلُّ. واستحق بامتياز كونه أحد العلماء الأكثر رزانة، والأغزر إنتاجًا في مجاله العلمي. وهذه الشهادة لتلميذه الباحث الأنثروبولوجي مالك شبل الذي كتب أكثر من مقال تثميني بُعيد غيابه[1].

شخصيته الحمّالة أوجه، تضمنت كلاً من المفكِّر والمعلّم والكاتب. وفي مقال تناول مهنتي الكاتب والمترجم كليهما، بعنوان "أستاذ مدرسة الإسلاميات الفرنسية"[2]، وتحت عنوان فرعي "صرامة وأناقة"، يكشف الكاتب مالك شبل النقابَ عن تعدّد وجوه مونتاي. وجوهٌ متكاملة خبرها عن كثب، كما نستنتج والقارئ. وتوقف عند ظاهرة تميزّه عن أبناء جيله، ويريد زملاءه ورفاق دربه المعرفي. فبعكس بعض الباحثين الذين تتوقف مساراتهم المهنية على حياة رتيبة وبِزّة نظامية، وتنحو على نسق أو نمط واحد، مونتاي اختار لنفسه في نهاية الخمسينات مهنة ثانية، جامعية هذه المرة. وهي أفضت به لاحقًا إلى ثالثةٍ نعرفها جميعًا، هي مهنة المؤلِّف والمترجم.

---

(1) مقال لمالك شبل نشره في صحيفة لوموند الباريسية بتاريخ 3/3/ 2005.
(2) المرجع السابق نفسه.

ويستنتج شبل أن الضابط الاحتياطي أضحى خلال سنوات المفكِّرَ والمعلّم والكاتب. فأصدر ثلاثين كتابًا، تتمتع بغنًى معرفي بقدر ما تسترعي اهتمام الجمهور. وهنا يتمثل بكتاب *"الإسلام الاسود"* (1982)، وهو في اعتقاده مؤلّفٌ لا يُضاهى لتاريخه، كما هو حال جواهره الفريدة والجميلة المنتمية إلى صنف كتابي آخر. وتوضيحًا للقارئ يستذكر بعض عناوينها: الخمر، الريح، حياة أبي نواس (سندباد 1998)، أو كتابًا آخر ذا عنوان مثير للإعجاب، الحب، العاشق، المحبوب لحافظ الشيرازي (1950). ولا تغيب عن كاتب المقال الإشارة إلى أن طلاب اليوم يعيدون إليه الفضل لإنجازه ترجمة *"مقدّمة ابن خلدون"* (1332- 1406)، التي ترجمها منذ عام 1967 برصانة ورشاقة تعبيرية لافتتين.

ندع الفرصة لمونتاي كي يخبّرنا عن نتاجه المطبوع، سنة فسنة. فنطّلع عليه في منظومة أوعيةِ نشرٍ، أصدرها مطلع "عمره" التأليفي، ولحظت تفاصيله في مندرجات صفحاتها الأولى. فمتى ألقينا نظرة سريعة على لائحة منشوراته المدرجَة في الطبعة الثانية لكتيب *"العرب"* (1957)، يتبيّن لنا أنه أصدر لتاريخه ثمانية كتب. أربعة منها تُظهر شخصيته الأنثروبولوجية الجادة والواعدة. وهي على التوالي: *"التكنا"* (1948)، *"نباتات الصحراء الغربية"* (1949-1953)، *"حيوانات الصحراء الغربية"*

(1951)، *"جمل الصحراء الغربية"* (1952). بعدها تحول اهتمامه إلى الإسلام، فأصدر *"دراسة عن الإسلام في الاتحاد السوفياتي"* (1953-1954)، ومن ثم صوّب اهتمامه إلى حقل الدراسات اللغوية، فنشر *"الفارسية الحديثة"*، و*"تسع غزليّات لحافظ الشيرازي"* (1955)، وأتبعها بدراسة عن *"اللهجة التركية لأذربيجان الإيرانية"* (1956). وفي العام نفسه نشر كتاب *"إيران"* (1956). وتفيدنا الطبعة الثالثة لكتيب *"العرب"* (1964) أن مؤلفاته أضحت سبعة عشر. ونكتشف أنه تابع خطّه التأليفي المتعدد الاهتمامات، فكتب عن *"المسلمين السوفيات"* (1957)، وعن *"الضباط"* (1958). وهذان الكتابان بالذات عادا عليه بتثمين خاص من قبل الجنرال شارل ديغول، الذي أرسل إليه تعليقات مكتوبة تناولتهما، وتطرقت أيضًا إلى الجزائر، كما يذكر صادق سلاّم في مقاله المذكور سابقًا.

عام 1966 أصدر كتاب *"قبائل فارس وتحضير البدو"*. أما كتاب *"الإرهاب الصهيوني" (Le Terrorisme de l'État d'Israël)* الذي نشره في عام 1978، مركّزًا على السمة الصهيونية لإسرائيل، فيُعدّ سبب عداوته مع كثيرين. ووفاءً لمعلّمه وصديقه لويس ماسينيون، أصدر كتاب *"كلمة الشرف"* (1983)، الذي سطّر فيه سيرة حياة البروفسور في الكوليج دو فرانس ذاته، وبمساعدة منه، وأدرجها في "مقدمة" مهّدت لمجموعة مقالاته.

وفي عام 1987 أصدر كتابًا استذكر فيه علاقته بمعلمه وصديقه ماسينيون، وتطرّق إلى روحانيته. الكتاب حمل عنوان *"لويس ماسينيون (1883- 1962) كفن النار"*.

نختم بالإشارة إلى أنه أصدر في مجالي اللغة والأدب كلًا من *"العربية الحديثة"* (1960)، و*"الأنطولوجيا الثنائية للأدب العربي الحديث"* (1961). أما اهتمامه بالإسلام وأقطاره، فتجلى في الكتابة عن انتشار الدين الحنيف في أكثر من بلد آسيوي وغربي، وفي دراسة أحوال المسلمين فيها. كما نشر ثلاثة كتب تناولت تباعًا كلًا من: *"المغرب"* (1962)، *والإسلام"*، و*"الإسلام الأسود"* (1963)[1].

(1) التواريخ المدرجة في هذه الفقرة بخصوص سنوات إصدار هذه الكتب تتأرجح وتتعدل حسب المواقع، ووفق كتاب المقالات عن حياة مونتاي، من جهة، وبسبب تعدّد طبعات الكتاب نفسه من جهة ثانية. فاقتضى التوضيح. ولأسباب إجرائية يتكرر أحيانًا ذكر أو الاستشهاد بالكتب عينها، فاقتضت الإشارة.

مختارات من كتابات مونتاي

سعيًا لإبراز أسلوب فانسان منصور مونتاي، والتبصّر في رؤيته للعالم العربي، الذي شُغف به وبعمرانه وثقافته وأهله ولسانهم. اصطفينا كتابين من مؤلفاته عرفا رواجًا، وطُبعا أكثر من مرة. نستهلّ بـكتيب *"العرب"* (1957)[1]، ومن ثمَّ نتطرق إلى *"الفكر العربي"* (1977)[2].

العـرب

حرصه الشديد على مواكبة تطور الأحداث، حدا به إلى استدراك مسألتين في الطبعة الأحدث لكتيب *"العرب"* (1964). فبعد نيل جمهورية موريتانيا الإسلامية استقلالها عن فرنسا عام 1960، آثر استبدالها بـ "المور" في الفصل العاشر. كما اختار عنوان "العالم العربي" لخاتمة الطبعة الثانية، في حين

(1) كتيــب صادر عن منشورات PUF الباريسية ضمن سلسلة que sais-je?، صدرت منه أربع طبعات: 1956، 1957، 1959، 1964.

(2) PHILOSOPHIE * Vincent Monteil: Clefs pour la pensée arabe. Seghers, Paris, 1974.

حملت خاتمة الطبعة الأولى (1957) عنوان "العروبة". اخترنا الثانية، الأحدث، لتعريف القارئ بمضمون الكتاب، بحكم أنها تستخلص جوهره، وتُجمل رؤية مونتاي لهذا العالم في خمس نقاط رئيسة.

أولاً. "العالم العربي"

"العالم العربي" خاتمةٌ انتقاها مونتاي لكتيب *"العرب"*، تناولت فقرتها الأولى كلًا من "الأبعاد الثلاثة للعالم العربي": الاستقلال والاتحاد والحياد، أو لعالم صرف فيه ثلاثة عقود من عمره المديد. معرّفًا هذا العالمَ، لا يفوت صاحب *"العربية الحديثة"* التذكيرُ بالمكوّن اللغوي، والإشارة إلى مرتبة المستوى المكتوب وأولويته. يقول:

"هو كل مكان يعيش فيه أشخاص يشعرون بأنّهم يشبهون بعضهم بعضًا من حيث اللغة المكتوبة (أو العرق)، وإيمان التوحيديين الساميين (علمانيين كانوا أو مسيحيين)، ونمط الحياة نفسه (حتى لو لبسوا الزي الأوروبي الكئيب). فمن الغرب إلى الشرق، ومن المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، تترامى البلدان العربية، وترتبط ببعضها، أرضًا وشعبًا:

المغرب الحيوي والجزائر المأساوية، وتونس
المتحضرة وليبيا الصحراوية، والسودان المشتعل،

وموريتانيا الواسعة، ومصر الدولة العميقة، وسوريا المثيرة للشفقة، ولبنان الحاذق، وفلسطين المنفية، والأردن اللاجئ، والعراق الآسيوي، وشبه الجزيرة العربية المذهلة، واليمن المنفتح جزئيًا!".

"ثلاث مجموعات جغرافية وسكانية هي: دول شمال أفريقيا وتضمّ 25 مليون نسمة، ودول حوض النيل (مصر والسودان) وتضمّ 35 مليون نسمة، ودول المشرق وشبه الجزيرة العربية وتضمّ 25 مليون نسمة". فكيف السبيل إلى الشك في قوة التيارات الثلاثة التي لا يمكن مقاومتها، والتي تدفع هذه البلدان نحو الاستقلال والاتحاد والحياد؟".

البلدان العربية التي خبرها مونتاي وأحسن توصيفها توزّعت على ثلاث مجموعات جغرافية وسكانية. لا يترك القراء حيارى، بل يستهل فقرة جديدة بالكلمات المفتاحية الثلاث الأخيرة، التي رُصفت بتراتبية مقصودة:

"الكلمة الأولى قوامها نداء الحرية، أي الاستقلال. فالشعوب المغلوبة تريد أن تتحرر، حتّى لو لزم الأمر الموت جوعًا. وينقل عن بروليتاريّ إسبانيّ قوله مرة: "جوعي ملكي" (*Mi hambre es mia*). سئمت هذه الشعوب أن تكون "مفعولًا به" مباشرًا أو غير مباشر، فهي في المحصلة، تريد أن تكون

"الفاعل". وبما أنّ التوق إلى العيش بكرامة ساطعٌ، فما من فائدة في إنكاره أو تجاهله أو حتّى الادعاء بأنّ "مَن لا يعرف القراءة ليس حرًا"، لأنّه يظن في قرارة نفسه أنّ عليه أن يستقلّ أوّلًا، لكي يُعلّمه إخوته القراءة".

أما "الميل إلى الاتحاد فواضحٌ. والدليل على ذلك تأسيس جامعة الدول العربية (عام 1945)، ومشاركة 14 دولة عربية في "القمة العربية" في القاهرة (كانون الثاني 1964)، وقيام اتحاد المغرب الذي ضمّ 25 مليون نسمة تقريبًا، وتوقيع كل من الأردن وسوريا ومصر والعراق والكويت في 13 آب 1964 في القاهرة وثيقة إنشاء سوق عربية مشتركة. ويمثل ذلك الرغبة في الوحدة، (فبالنسبة إلى حزب البعث السوري، "لا اشتراكية في العالم العربي من دون وحدة")، ما يعني تكافؤ الفرص في مجموعات تكون قابلة للاستمرار أكثر من الدول الصغيرة جدًا، وتتحلّى ببعض المرونة، بغية المحافظة على الأصالة، أو على بعض المتطلبات الإقليمية".

ويورد ملاحظة دقيقة تنمّ عن سعة معارفه بالأدب العربي الحديث وأعلامه، ثانية للعرب خلص إليها بعد قراءته للمشهد السياسي:

"بالنسبة إلى الميل إلى الحياد، فهو لا يعبّر إلّا عن تحدي جميع الالتزامات، وعن جاذبية "العالم الثالث" والمؤتمر

الآسيوي-الأفريقي في باندونغ، ناهيك بالتضامن مع الجياع ومُعاني سوء التغذية وكثيري النسل، وكل مَن ينجب أولادًا في "أرخص الليالي"، وفق تعبير الطبيب المصري الشاب، والروائي يوسف إدريس... إنّه باختصار نداء الأخوّة".

"التدخلات الأجنبية" ليست هي الحاسمة في هذه السياقات الثلاثة. فالاتحاد السوفياتي أحرز تقدّمًا، لأنّه على ما يبدو يتخذ إجراءات من دون نية مضمرة، وبلا مقابل. والقوتَان العالميتَان تُدخلان الدول الصغرى في لعبة أرجوحة التوازن، ونتائج التجربة السوفياتية عند الأقليات المسلمة في الفولغا والقوقاز وتركستان، جرى عمومًا تجاهلها على الصُعد السياسية والثقافية والاجتماعية والمعنوية. فعلى العرب أن يطبّقوا الشعار الجمهوري والثوري القديم، أي المطالبة بالحرية والإخاء والمساواة، لكي يحصلوا على استقلالهم أو ينجزوه، ولكي يتّحدوا أو يجتمعوا ويبقوا على حياد بين العملاقَين".

ثانيًا. عالم العرب السياسي

"وعلى الرغم من أنّ عالم العرب السياسي مشوّشٌ نوعًا ما، فهذا التوق يتحقق ويتجلّى في ظروف معيّنة، وقد حدّدته بوضوح نخبة من المثقفين والسياسيين والنقابيين (قوى المجتمع الحية). ومن غير الموضوعي ألّا نحاول، أقله، رسم

الملامح المهمة للعالم السياسي العربي، وللقومية العربية، وللمجتمع العربي".

"وفيما يتصل بالنقطة الأولى، فالضوء المأمول سُلّط على مشاركة جاك بيرك القيّمة ضمن *"الموسوعة الفرنسية"* *(l'Encyclopédie française)* تحت عنوان "عالم العرب السياسي" (1957). وقد تعمّق جاك بيرك في كل ذلك في كتاب *"العرب من الأمس إلى الغد"* *(Les Arabes d'hier à demain)*، الصادر عام 1960، وكتاب *"المغرب بين حربين"* *(Le Maghreb entre deux guerres)*، الصادر عام 1962، وكتاب *"نهب العالم"* *(Dépossession du monde)*، الصادر عام 1964"[1][....]، "ومن بين جميع المستشرقين، تمكّن كل من لويس ماسينيون باعتباره حكيمًا ومؤمنًا، وجاك بيرك باعتباره عالم اجتماع بارعًا، من تقديم دراسات لامعة وعميقة يستحقها موضوع أساسيّ كهذا".

وصف مونتاي المعطيات التقليدية، وعرض الوقائع الإقليمية، وقدّم دراسة عن علم الاجتماع السياسي من منظار دقيق، وفي النهاية حلّل على التوالي المؤسسات والأنماط، ليخلص إلى الآتي:

---

(1) الإشارة الأخيرة إلى مؤلفات ماسينيون ذات الصلة أوردها مونتاي في الهامش رقم (1)، ص 108.

"بدايةً نستبقي هنا، من تحليل بيرك، أن *العروبة* يمكن على نحو أوسع تعريفها بمصطلح "البداوة"، ويطابق ذلك ما أطلق عليه روبير مونتاني اسم "حضارة الصحراء". ففي المراحل الأولى للإسلام، كانت الحياة البدوية منتشرة حول المسجد والسوق والحمّام العمومي (ولا تزال هذه المراكز قائمة في كل مكان، حتى في المدن العمّالية الأكثر حداثة، مثال الدار البيضاء)".

"ولا تغيب أبدًا الخصائص القديمة، كالطائفية هنا، والخصوصيّة القبائلية هناك، ناهيك بالخلافات الداخلية. ولكن كثيرين يرغبون في تحرير بلادهم من كل ذلك، ولا شكّ في أنّ المستقبل بين أيدي هؤلاء. ومن المؤسف أنّ اهتمام المراقبين الأجانب ينصبّ غالبًا على الانقسامات القديمة، بدلًا من أن يقدّروا عوامل التطوّر الحيوية بشكلٍ عادلٍ. وعلى غرار المجتمعات الأخرى يخضع العرب لقوانين علم النفس الاجتماعي الأساسية، مثال التأقلم مع البيئة، و"الاستجابة" لأيّ تحفيز خارجي، والمشاركة في التيارات العالمية".

الشواهد ذات الصلة حاضرة على الدوام في كتاباته:

"فالحياة السياسية تتّسم بأعمال تجمعات برجوازية وشعبية في آن، أي ما يعرف بالأحزاب، كالوفد المصري، أو الكتلة السورية، أو الاستقلال المغربي، أو الدستور التونسي.

وتاريخ حزب الوفد الذي امتد على ثلاثين عامًا، يمثل "منحنى لمجموعة كانت ثائرة في بداياتها لكنّها لجأت تدريجيًّا إلى التسويات". وقد فرضت الثورة المصرية في تموز 1952 صيغة الحزب الواحد. ويخلص إلى أن التغلب على الفردية المفرطة وتحرير الحياة البرلمانية المشكوك فيها، يساعدان من دون شكّ على دعم الأحزاب، على الرغم من أنّها تخضع للتوجّه التقليدي أي "للشورى". ومشاركتها في مؤتمر باندونغ (نيسان 1955) خطوة رائدة تتوافق مع رغبتها في توسيع الحياة السياسية على الصعد الأفرو آسيوية، الأكثر رحابة".

يذكر اثنين من خصائص العالم السياسي العربي:

"التوق إلى المغامرة "بأسلوب" محدّد، والشعور بالشرف. ويلاحظ ارتباطها "بالبحث عن بطل، أي عبادة الزعيم الذي تخدمه إلى حدّ كبير بلاغةٌ ساحرة يتحلّى بها كلٌّ من بورقيبة وعبد الناصر. ملحوظة تواصلية ذكية تنمّ عن دراية ومعرفة دقيقتين بتوظيف فن البلاغة عند الزعيم، وتزخيم قدرات الإقناع والتأثير عند جمهوره".

كما يتناول "مشاكل العصر التي تواجه كلًا من الأحزاب والزعماء:

"فبعد التحرير السياسي، لا بدّ من التفكير في الاقتصاد والعدالة الاجتماعية. وهنا يضطلع المخططون بدور أساسي.

وكالعادة فمروحة شواهده تطال ثلاث تجارب عربية متنوعة. فقبل استقلال الجزائر (1962)، لطالما اعتُبرت مصر "رائدةً" بفضل مخطط الإصلاح الزراعي الذي حققته عام 1952، وجرّاء تأميم قناة السويس، حتى إنّ معارضين من اليسار وصفوا هذه الخطوات "بالتقدميّة على نحو موضوعي". لكن ما من شيء أهمّ من التصدي للبطالة الجزئية، وقد بيّنت التجربة التونسية أنّه من الممكن وضع حدّ لها من خلال الموارد الوطنية المالية والتقنية والإدارية".

ويخلص بالتأكيد أن:

"كل ذلك يتحقق عندما ترجح الحقيقة الكِفة على الرمز"، فبيرك هو القائل: "في الشرق، يُعدّ دائمًا ما هو افتراضي حقيقيًا ومقبولًا، ويُشعرُ به في العمق أكثر مما هو واقعي. ومن الممكن التهرب ممّا هو ملموس، لكن الكثير من الأسس تبقى وفق هذه الطريقة هشة".

يوجز موقف بيرك، ولا يتوقف هنا وفي مواضع أخرى، عن التذكير بتراتبية العداء عند العرب:

"كتب هذه السطور في أعقاب حرب فلسطين التي اعتبرها العرب كلهم بمثابة كارثة وإهانة وازدراء. وينبغي أن ندرك أنّ اسرائيل تمثل بالنسبة إليهم جميع الملامح الخارجية للاستعمار والإمبريالية الراسخة في أذهانهم، ومن الممكن طرح المسألة

من وجهة نظر أخرى، أي من الجانب الآخر. وعلينا أن نعي أنّ العرب لا يشعرون البتة بأنّ الشيوعية تهدّدهم، فإسرائيل هي العدو في نظرهم".

ثالثـًا. القومية العربية

شواهده الإثباتية يستقيها من أصحاب الرأي. فيعود مثلًا إلى المسعدي، كما يلمّح إلى موضوع العربية الحديثة الأثير عنده:

"السيد محمود مسعدي وزير التربية الوطنية في تونس الذي نشر سلسلة مقالات في الصحيفة الأسبوعية التونسية الصادرة باللغة الفرنسية "العمل" (L'Action)، في كانون الثاني 1958 تناولت ما نسمّيه اليوم "القومية"، وتحديدًا القومية العربية [1]. وكان حريٌّ بمسعدي الرجوع إلى "أداته اللغوية الخاصة، أي اللغة العربية". لدرجة أن بعض الأدباء المشاركين في "مؤتمر الأدباء العرب" (عُقِدَ في القاهرة، عام 1958) أرادوا أن يُعيدوا قوميتهم "إلى اللغة العربية، وإلى الإرث الثقافي الذي ساعدت في نقله، وإلى تدفق الأفكار الحالية التي لا تزال تعبّر عنها. والمقصود بطبيعة الحال اللغة

(1) وزير التربية القومية في تونس وكاتب مسرحية جميلة مستوحاة من مسرح إبسن باللغة العربية بعنوان "السد" (1955).

المكتوبة المشتركة التي تتجاوز اللهجات، أي العربية "الحديثة" المستخدمـــة في الصحافة والأدب والإذاعة وفي أحاديث المثقفين".

"إلّا أنّ مسعدي ظنّ أنّ ذلك يشكل خطرًا، ألا وهو العلمانية المفرطة. فكتب: "لو كان لا بدّ من أن يضيع أو يضعف الاهتمام بمستقبل الفكر الإسلامي ومصيره، وتحديثه وإحيائه، ولو لم يعد الإسلام، لا باعتباره دينًا أم عقيدةً، بل أسلوبًا يتساءل من خلاله الإنسان عن نفسه ويتفكر فيها، يحفز على بذل جهود للإبداع الفكري والروحي في الشرق، من جراء تنازلات تكتيكية للقومية المشبعة بالسياسة، لانتهى حتمًا واحدٌ من انتصارات الإنسان المبتكرة والمثمرة والصحيحة، وانتهت كنوز قيمية عرف كيف يوجدها ولا تقدر بثمن"[1].

يستفيض في مناقشة علاقة القومية العربية بالعلمانية في تونس، فيرى:

"أن هذا الكلام لم يأتِ، في الواقع، من بلد "تُعتمر فيه عمامة قديمة" رجعية، بل من بلد يتجلّى فيه بوضوح جهدُ نشر العلمانية بشكل رسمي. وفي الندوة الدولية عن الإسلام التي عُقِدَت في لاهور في كانون الثاني 1958، أراد الألماني

(1) صحيفة "العمل" L'Action، 20 كانون الثاني 1958.

ج. شاخت إعطاء مَثل "مجلة الأحوال الشخصية التونسية" التي صدرت في 13 آب 1956 (لكنّه لم يقم بذلك). ومن المؤكّد أنّ العلمانية امتدّت في أنحاء البلدان العربية مثال مصر أو شمال أفريقيا أو المشرق، باستثناء الجزر الصغيرة التي تسيطر فيها "الإقطاعية. ومن الواضح أن هذه المسألة ترتبط - عن حق، أو من غير وجه حق - بتحقيق العدالة الاجتماعية في مدارك مَن يقوم بالإصلاحات".

"فعلى هذه الأرض يلتقي "علمانيون" مثلما "رجال دين"، كما تظهر تشكيلات الأحزاب المغربية، أو حزب جبهة التحرير الوطني الجزائري. وفي الحقيقة، تُعدّ التوجهات الاشتراكية، أو تلك التي تنزع إلى الاشتراكية، قائمة في أرض الإسلام، وتتجسّد في مصر وتونس والمغرب مع حزب البعث، وخاصة في الجزائر. ومحمود مسعدي كان على حق عندما شدّد على أنّ "الإسلام لا يرفض العدالة الاجتماعية، بل يطالب بها. ولكنه يرفض "إخضاع الإنسان للاشتراكية" ويبقى متمسكًا تمامًا بحرية الفرد".

حذرُه من حَرفِ القومية العربية عن مسارها الصحيح جعله يسلط الضوء على مخاطر يتوجس منها. فيكتب مستندًا إلى رؤيته الشمولية وخلفيته اللغوية، ويمدنا بشاهد يؤكد رؤيته لترابط الثقافة والبحث العلمي وتداخلهما:

"ما من شكّ في أنّ الخطر الأساس الذي يهدد القومية

العربية، هو أن تصبح علمانية إلى حدّ كبير، أو اشتراكية، أكثر منها تكنوقراطية. لا بل إنّ الخطر يتمثل بالانعزال والانطواء والانفصال عن العالم الخارجي. فبعد الانطلاق من اللسانيات، لا بدّ من العودة إليها. والخطر يكمن في الواقع، باكتفاء العرب بلغتهم الخاصة، والتحصن بوجه اللغات الحية الأخرى وخصائص الحضارة الأخرى. ففي 18 آب 1957، وخلال وجوده في توملیلین، حذّر المهدي بن بركة، أستاذ الرياضيات وأحد مؤسسي حزب الاستقلال، بالقول: "بلد من دون ثقافة وباحثين، لا يستحق غير العبودية"[1].

رابعًا. أزمة المجتمع العربي

نزاهة علي الوردي وشجاعته استوجبتا الثناء والذكر في هذه الفقرة:

"عالم الاجتماع العراقي الشاب الحرّ علي الوردي قدّم نقدًا ذاتيًا قاسيًا وضروريًا، لدى إلقائه محاضرة جريئة، بالعربية، حول مشكلة الأخلاق في المجتمع العربي[2]. فقد لفت انتباه الحضور إلى الفرق الأساس بين "علامات"

(1) ورد التحذير في كتاب *"المغرب تحت الاختبار" (Le Maroc à l'épreuve)* لجان وسيمون لاكوتور، منشورات سوي (Seuil)، 1958.

(2) في مؤتمر الدراسات العربية بدعوة من الجامعة الأميركية ببيروت (نهاية نيسان 1958).

الحضارة الحديثة و"مضمونها" الغائب كليًّا. ورأى أن العرب اعتمدوا مظاهر الحضارة الغربية المادية والتقنية، بدلًا من المُثُل التي ترتكز إليها مُثل "الأخلاق، والقيم الأخلاقية والإنسانية وأهمية المرأة والمسؤولية الاجتماعية والأبحاث الفكرية والتفكير العلمي وحرية الإنسان"[1].

"وخريج الجامعة غالبًا ما يكتفي بشهادته، متجاهلًا التضحية في سبيل العلم، فالنجاح أصبح في المجتمع مقياس القيمة. أمّا في السياسة، فالنظام الإقطاعي يلغي فكرة الديمقراطية. وأضاف: "ما النظام، والشعور بالمواطنة والمسؤولية الاجتماعية إلّا كلمات أُفرغت من معناها". (وباستثناء الانتقاد المتعلّق بالنظام الإقطاعي الذي اتخذ أشكالًا أخرى، من الممكن أن تطبّق هذه الانتقادات حرفيًّا في الكثير من البلدان الأخرى غير العربية...). وشدّد على أنّ "الشعوب العربية لم تستوعب بعد روح الحضارة الحديثة"، لذلك اعتقد أنّها "تشبه رجلًا يلبس ثيابًا ليست له".

"الأزمة" تضرب جذور حياتنا الاجتماعية". ولا تزال "معايير القيم الأخلاقية"، التي من المفترض أن تكون "مبنية على الحرية"، هي المشكلة الأساسية. وتعدّ قيم الشعوب العربية

(1) المدرّس في جامعة بغداد وصاحب مؤلفات رائدة منها "شخصية الفرد العراقي" و"وعاظ السلاطين".

الأخلاقية في الكثير من الأحيان "معكوسة، ومنحرفة عن مسارها، وجامدة"، إذ استبدَل التكيّفُ الاجتماعي الحقيقةَ، وقضت النزعات المتعصبة على الحب، وتشوّه ما هو جميلٌ، واقتصر الشرف على احترام المحظورات الجنسية. فهل يستطيع جميع الأوروبيين والأميركيين أن يزيلوا الغموض الذي يكتنف أساطير حياتهم الاجتماعية؟ النقد الذاتي، لم يغب عن العالم العربي، فالزعيم المغربي علال الفاسي خصّه بكتاب يحمل اسم *"النقد الذاتي"* (1952).

خامسًا. المستقبل والأمل

نقاطه الخمس تتماسك وتمهد واحدتها للثانية. والاستنتاج الذي ينتهي إليه لا يخرج عن نطاق رؤيته الوقائع وتحليله الأحداث:

"استنتج الوردي أنّ العلاج يجب أن يأتي من الداخل، أي من خلال التعليم، بهدف تحقيق إصلاح أخلاقي عميق. فالمستقبل للشعب والشباب ولتمكين المرأة. بالطبع، فالبلدان العربية هرمة بحكم ماضيها، لكن ديموغرافيتها السكانية تجعلها تنبض بروح شبابية. ففي كل مكان، يضطلع مَن هم دون العشرين عامًا بدور فعّال، وبالتالي فالمدارس تكتسب أهمية بالغة. وتعي ذلك جيدًا الدول المستقلة الشابة، مثال

الجزائر والمغرب وتونس، فتبذل جهودًا جبارة لمحو الأمية. لكن بيرك انتقد عن حق "الذرائعية والمنفعية اللتين تسودان حاليًّا بعض أساليب التعليم في العالم العربي، وذلك كردّ فعل على أنواع العبودية القديمة. وقد يكون ذلك خدعة الإمبريالية الأخيرة".

ربط مونتاي بين اهتمامات الشباب وتوجهات الأدباء العرب الحالية، وقرن رأيه بنماذج حية لكاتبين عربيين معاصرين مبدعين بالفرنسية وحثّ القارئ على الاستنتاج بأن المهارات الاستثنائية تتضمن اللغة والاستنارة المعرفية كلتيهما:

"نقرأ غالبًا ما يعبّر الأدب الحالي الشاهد على عصرنا، بشدة، عن اهتمامات الشباب العربي الاجتماعية. وبوجه خاص يتبع الروائيون وكتّاب القصص الصغيرة المصريون أو العراقيون النزعة الماركسية. فمن خلال كتاباتهم، ينيرون القراء بعناية في مصر، وبحزم في العراق. والكاتب اللبناني جورج شحادة، والكاتب الجزائري كاتب ياسين، لفتا الانتباهَ، بفضل اكتسابهما مهارات استثنائية وإتقانًا غير معهود للخطاب".

تناول "تحرير المرأة" بحكم معرفته الوثيقة بأحوال كلا البلدين المغاربيين، وتطرق إلى الحالة النسوية اللبنانية. وطرح تساؤلًا محقًا ينبع من خبرة عميقة اكسبته إياها معاياناتٌ ميدانية. استشهد بآراء كتّاب عرب معروفين لتأكيد الأقوال وتثبيتها:

"أمّا تحرير المرأة الخجول الذي يواجه عقبات عدّة في الظروف العادية، فقد تخطى هذه العقبات على نحو حاسم في زمن الثورة. فكيف يمكن عدم الاعتراف بذلك في تونس، أو المغرب، حيث ترفض الشابات القيود العائلية؟ وفي الحقيقة، فالقوانين الجديدة تشجعها على ذلك، خصوصًا أن جوّ "التمييز" يتبدل شيئًا فشيئًا. أمّا بالنسبة إلى الجزائر، فكتب جيرمين تيليون: "أعرف شخصيًّا الكثير من العائلات المسلمة المتزمتة والمتمسكة بالتقاليد، خلعت فتياتها الحجاب، ولبسن مباشرة "الجينز" الأزرق، ولم يعدن ينتمين إلى الحريم، بل أصبحن من المناضلات. فمَن يمكنه تخيّل عكس ذلك؟"[1].

"المرأة المسلمة بدأت أيضًا بالتعبير عن نفسها بصورة مباشرة في الكتابات المعاصرة. فالشابة اللبنانية ليلى بعلبكي نشرت رواية بعنوان *"أنا أحيا"* (في شباط 1958). وهي سيرة ذاتية تعبّر عن صرخة صدق وشغف مؤثرتين. وكل الشباب العربي من الجنسَين، يستعيد مواضيع يتخللها القلق والحرمان. فلماذا يختلف هؤلاء عن أبناء جيلهم الآخرين؟".

خبرتُه الشمال إفريقية ومعارفُ زمانه المغاربي أعانتاه على اصطفاء شواهد موائمة رفد بها أفكاره:

(1) مقال منشور في المجلة الأدبية "أدلة" Preuve في أيّار 1958.

"الشباب العربي ينتمي في الواقع إلى منظمات نقابية، تتحلّى أكثر فأكثر بالنشاط والقوة، على الرغم من أنّ سلطةً حذرةً تقسمها هنا، وحكمًا استبداديًا يقودها أو يتحكم بها هناك. [....] وثمة بلدان تشكل فيها النقابات قوة متزايدة على الصعد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مثال الاتحاد المغربي للشغل، أو الاتحاد العام التونسي للشغل، وذلك بفضل مئات آلاف الأعضاء والكوادر من ذوي الخبرة، وبفضل نشاطهم وبرامج التخطيط الخاصة بهم. وينقل عن بيرك قوله إنّ فرحات حشاد، مؤسس الاتحاد العام التونسي للشغل، الذي اغتيل في 5 كانون الأول 1952، "هو بلا شك أعظم زعيم نقابي في العالم العربي".

ومن أجل مستقبل أفضل للعالم العربي، يستخلص أن هاجس الاستعمار -الفرنسي- وتبعاته ما غادرت مداركه. وحرفُ الأنظار عن الخطر الإسرائيلي الداهم والاكتفاء بالتخويف من مخاطر الشيوعية، أثارا اهتمامه، فكتب وحذر منهما، هنا وفي مواضع أخرى:

"علينا تعليق الآمال على ركائز ثلاث متمثلة بالشباب والنساء والنقابات. فمن خلال هذه الثلاثية ينبغي أن نتفاهم مع بعضنا البعض في جوّ من الصداقة. فالتفاهم ممكن بالطبع، شرط أن نتخطى مرارة زمنِ استعمار ولّى، مع اعتراف كل الأطراف بنتائجه، بإنصافٍ، وشرط ألّا نسعى إلى إعادته أو

الإبقاء عليه بأوجه أخرى.... ومن أجل أن تعيد فرنسا علاقاتها السوية مع العالم العربي أو بالأحرى أن تجدّدها، يجب أن تنأى بنفسها عن سياسة لا تناسب دائمًا مصالحها أو توجهاتها، وأن تتّخذ موقفًا أكثر تحفظًا من إسرائيل، خصوصًا أنّ الجزائر استعادت أخيرًا استقلالها وهويتها".

يفيد المختصر المدرج على الغلاف الأخير لكتاب *"الفكر العربي"*، أنه صدر في الوقت المناسب (1974): فالعرب باتوا في واجهة المشهد، أي موضع تساؤل ومحطّ أنظار الجميع[1]. إذ لا يُعرف عنهم إلّا القليل، أو ما يعرف عنهم خاطئ. فهل فكرُ العرب فريدٌ من نوعه؟ هل تطوّر هذا الفكرُ منذ أن أُنزل القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي؟ كيف كان هذا التطوّر؟ هل يختلف هذا الفكر العربي عن فكرنا (الغرب) إلى حدّ كبير، لدرجة أنّه يبدو غريبًا بالنسبة إلينا؟ مونتاي يجيبنا عن هذه الأسئلة في عشر نقاط مركّزة، وخاتمة استنتاجية، الهدف منها إيراد وقائع والإتيان بشهادات مثبتة، دفاعًا عن أصالة فكر عربي آمن بجدواه وخصّه بكتاب[2].

---

(1) يبدو أن المراد بهذه الملحوظة هو نتائج حرب 6 أكتوبر (1973) التي خاضتها مصر وسوريا ضدّ إسرائيل (استنتاج شخصي).

(2) انتخبنا من النقاط العشر تسعًا، واختصرناها قدر الإمكان تماشيًا مع العدد المحدد للصفحات المطلوبة.

الفكر الاجتماعي

"إن الفضل في تمهيد الطريق أمام علم الاجتماع يعود لابن خلدون[1]، وهو سلف أوغست كونت العظيم. ويشرح ابن خلدون ذلك في بداية مقدمة كتابه *"العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"*.

والكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة... وكأنّ هذا علم مستقل بذاته، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثال التوحش والتأنس والعصبيات وطرائق سيطرة البشر وهيمنة بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها. وما ينتحل البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال". وفي الواقع، يُطلق ابن خلدون على هذا العلم الحديث اسم "التاريخ"، لغياب لفظ مناسب بين المفردات المتداولة في عصره. ومن الواضح أنّ

(1) المولود في تونس العاصمة سنة 1332، والمتوفى في القاهرة سنة 1406.

هذا البحث واسع النطاق و"حديث". فما هو علم الاجتماع أو دراسة الاجتماع الإنساني؟

ينقل عن ابن خلدون اعتقاده أنّ:

"الإنسان يعيش في بيئة طبيعية واجتماعية، وهو بطبيعته من جنس الحيوانات. وقد ميّزه الله عنها بالفكر، إلّا أنّ طباعه العدوانية تدفعه إلى مهاجمة أبناء جنسه. لذلك، يحتاج إلى كابحة، أو وسيط "وازع"، يساعده لينتظم في المجتمع ويحقق العمران الذي قد يكون بدويًا (يشمل الرحّل أو الريفيين) أو حضريًّا، لدينا إذن إما "بداوة" أو "حضارة". ويُعدّ التضامن الضروري بين البشر ثمرة حافزٍ معيّن ألا وهو روح الجماعة، أو روح التكاتف الذي يوحّد في الأصل بين مَن جمعهم رابط الدم، أو ما يسميه ابن خلدون "العصبية". فهو الذي يجعل مجموعة معيّنة متفوّقة على أخرى. ويولي ابن خلدون أهميّة كبرى لما يُعرف "بالبيئة" في اللغة العربية المعاصرة. وهو أطلق عليها كلمة "الأحوال" لغياب خيار تسمية أفضل في عصره. ويرى ابن خلدون أيضًا أنّ "الإنسان ابن عوائده"[1] (الجزء الأول)، وهو يذهب إلى أن الإنسان يتأثّر بالظروف المحيطة

(1) ابن خلدون، المقدمة، كتاب *"العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"*، مكتبة ودار المدينة المنورة للنشر والتوزيع-الدار التونسية للنشر، 1984، الجزء الأول، ص. 170.

به، لا بما قد ورثه عن الأسلاف. ويُبرز التغيّرات الاجتماعية التي يُركّز عليها علماء الاجتماع، ويقدّم إحصاءات، ويشير إلى التهرّب الضريبي، ويبيّن من خلال الاستقصائيات الديموغرافية الحضرية أنّ أهل البدو "المتفردين" في المدن يفوقون أهل الحضر عددًا".

2. التمثل الرمزي بقصص الحشرات، أسلوب اعتمده لإيصال أفكاره إلى المتلقين:

"نلاحظ باهتمام أن الفكر العربي في وقت مبكر، ومنذ أن أُنزل القرآن الكريم[1]، سَلّط الضوء على ميل هذه الحشرات إلى التنظيم، إذ يساعد إلهامٌ من الله تعالى النحلَ على بناء خلاياه، والنمل على بناء قريته. وبالعودة مرّة أخرى إلى ابن خلدون، نذكر ما كتبه في مقطع عن "سلطان" الإنسان: "قد يوجد في بعض الحيوانات العجم، على ما ذكره الحكماء، كما في النحل والجراد لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع "لرئيس" من أشخاصها، متميّز عنها في خلقه وجثمانه" (الجزء الأول، ص. 79). ولم تظهر عبقرية ابن خلدون إلّا عندما تفكّر وكتب عن تطوّر الكائنات الحية. فانتظر حتّى نهاية القرن الرابع عشر، ليتجرّأ ويقدّم ما يُعدّ سابقًا لعصره على

(1) وتحديدًا في السورة السادسة عشرة، وهي سورة "النحل" والسورة السابعة والعشرين، وهي سورة "النمل".

النحو التالي: "ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج. آخرُ أفق المعادن متصل بأوّل أفق النبات، مثل الحشائش وما لا بزرة له. وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متّصل بأوّل أفق الحيوان كالحلزون والصدف، ولم توجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أنّ آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أوّل أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعدّدت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والتبصّر، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى التبصّر والفكر بالفعل، وكان ذلك أوّل أفق من الإنسان بعده. وهذا غاية شهودنا" (الجزء الأول، ص. 137). ولاحقًا يذكّر الكاتب بأهمّ ما ورد في هذا المقطع، ليستنتج ما يلي: "تمثل إمكانية التطوّر المتبادل، في كل أفق من آفاق التكوين، ما يعرف باستمرارية الكائنات الحية" (الجزء الثاني).

"إن ما يتبين في مراحل تكوّن الفكر العلمي العربي وتطوّره، هو أنّ هذه الحالة ليست معزولةً، لا بل من الممكن أحيانًا العودة إلى مصدر هذا التفكير الباهر. ويرُجح أنّ يكون ابن خلدون قد تأثّر عند كتابة هذا المقطع بـ "الإلهيات المنطقية" التي كتب عنها مسكويه (ت 1030)، في *"الفوز الأصغر"* (القاهرة، 1907، ص. 82): من "أفق" إلى آخر، ننتقل تدريجيًا

من "مراتب القرود وأشباهها من الحيوانات" إلى الإنسان. وقبل مسكويه، ذُكر الانتقال التدريجي بين "أركان الطبيعة الأربعة" في رسائل اخوان الصفا في القرن العاشر[1]، لكنّ القرد لا يشبه الإنسان إلّا من حيث شكله الخارجي، وقدرته على التقليد[2]. وهذه الفكرة لم تُستوحَ من القرآن الكريم، على عكس ما أكّده افتكار أحمد في الباكستان، إذ لم يأتِ القرآن الكريم على ذكر القردة إلّا مرتين[3]، وفي كل مرّة وردت على أنّها تحوّل خاسئ للكفار"[4].

"وبالمقابل فالمقارنة تفرض نفسها مع أوغست كونت الذي ما كان بمقدوره الاطلاع على "المقدمة" التي كان دي سلان (1862-1868) أوّل مَن ترجمها إلى اللغة الفرنسية، والذي كتب في عام 1839: "[...] لا ينقطع الانتقال العام المستمر بين كل المستويات التالية: من أيّ نبات وحيوان كان، مروراً بالحيوانات الفقارية واللافقارية الأخيرة تباعًا، والصعود بعد ذلك إلى العصافير والثدييات، ومن بينها الصعود

(1) بيروت، 1957، الجزء الرابع، ص. 237،
(2) الجزء الأول، ص. 448 والجزء الثاني، ص. 170.
(3) في السورة الثانية، الآية 65، والسورة السابعة، الآية 166.
(4) بالإضافة الى ذلك، فإن "الطبعات الشرقية [لكتاب ابن خلدون]، كطبعة بيروت، 1957، ص. 167 والملاحظة الثانية، وطبعة القاهرة، غير مؤرخة، ص. 96، استَبدلت بأدبٍ كلمةَ قردة بكلمة قدرة (المصير)، على حساب المعنى!" (م. طالبي، 1967، ص. 135).

تدريجيًا إلى آكلي اللحوم والقرود. وبما أنّ ابن خلدون هو أوّل مَن كتب عن هذا الموضوع، فقد يكون هو من أطلق ما عُرف فيما بعد "بالعلوم الاجتماعية"[1].

3. "من الممكن تصوّر البيئة الاجتماعية في مدينة البصرة (التي تقع اليوم في العراق) في زمن الأديب المشهور الجاحظ (ت 868 م.)، ومن بين كل ما كتبه، كان "له الفضل الكبير في تقديم نوع جديد في الأدب العربي، وصف فيه طباع البشر والمجتمع الإسلامي، خصوصًا، في أعماله الدنيوية. [...] ولم يغب الواقع الاجتماعي عن كتاباته، باعتباره عاملًا لتطوّر الإنسان. فعلينا أن نخصّص يومًا ما دراسة معمّقة حول فلسفته الاجتماعية[2]. إذ ثمة قيمة كبيرة بنظرنا لكلّ النصوص التي كتبها، وهي غالبًا

---

(1) في العصر الذي عاش فيه ابن خلدون أي في نهاية القرن الرابع عشر، ضمّت باريس 300000 نسمة. وضمّت القاهرة، حيث أمضى آخر أيامه، 500000 نسمة في القرن العاشر (العدد نفسه في سمرقند، أمّا قرطبة فضمّت 700000 نسمة). وفي أفضل فترة عرفتها بغداد "سكن فيها أكثر من مليون نسمة"، بينما "اقترب عدد سكان منافستها بيزنطة من المليون بالطبع". لكن ميناء هانغتشو في الصين، الذي يسميه العرب الخنساء، اعتُبر من دون أدنى شك أكبر مدينة في العالم في القرن الرابع عشر.

(2) ثمة دراسة قيمة للدكتورة رشيدة اللقاني بعنوان *"ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ"*، صدرت عام 1993 عن جامعة الملك سعود في الرياض (المؤلف والمترجم).

نتيجة تجارب علميّة حقيقيّة، [...]. ومن المعلوم -أيضًا- أنّ الطبقات الاجتماعية الأربع، "الناتجة عن مفهومَي الدين والعرق، على حد سواء" هي التي تقسم المجتمع في البصرة، وتضمّ الفاتحين العرب وعملاءهم القدامى، والعرب الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا، وغير العرب الذين اعتنقوه، وغير المسلمين، والعبيد. ومن ثمّ تحوّلت هذه الفئات من جرّاء التنمية الاقتصادية والاختلاط الاجتماعي إلى أربع فئات أخرى بحسب الثروة: الطبقة الأرستقراطية من العرب الأصليين، والطبقة البرجوازية المؤلّفة من العرب وغير العرب والمسلمين وغير المسلمين، والشعب، والعبيد[1].

4. "المدينة الإسلامية البسيطة والحديثة جدًّا في آنٍ، وحِرف أهلها، "تقع [...]، إمّا عند مفترق الطرق، وإمّا بالقرب من مخاضة نهر، في المكان المخصّص للتبادل أي السوق [...] فيها مكان للتسوق والصلاة ومحكمة". يتوسطها مسجد و"قيصرية"، أي متجر للأقمشة الثمينة، وسوق الغزل و"المكتبة"، أي نواة الجامعة المستقبلية. وقد اضطلعت فيها الحِرَفُ اليدوية بأهميةٍ كبيرةٍ. ففي البداية، كانت تحت سلطة "الزبائن"، وهم عبيد معتوقون، من غير العرب، اعتنقوا الإسلام. وانتظمت في القرن التاسع بعد الميلاد، ضمن هيئات أو جمعيات سرية

(1) شارل بيلا، 1953، ص. 224-225.

ذات طابع تعليمي، تأسست بموجب "عهد شرف"، أي نوع من أنواع "الفتوة". "واضطرت، بعد ذلك، الدول الإسلامية إلى السماح لمصرفيين مسيحيين أو يهود، باحتكار تجارة الفضّة، بما أنّ الشريعة الإسلامية تمنع المؤمنين من الاتجار بالذهب والفضّة، وترفض وجود أيّ طوائف دينية في بلد إسلامي، باستثناء المسيحية واليهودية. ويُشتبه بأنّ أصحاب رؤوس الأموال المسيحيين لعبوا دورًا في بناء الدول الكبيرة المسيحية المجاورة، لذلك فضّلت الدولة الإسلامية أصحاب رؤوس الأموال اليهود أكثر فأكثر، وكلّفتهم بتجارة الفضّة. ومن المعروف أنّ تقنية النظام المصرفي الحديثة تأسست في أوروبا بفضل هجرة المصرفيين اليهود من بغداد والقاهرة عبر الأندلس، في العصور الوسطى". ومن المؤكّد أنّ لكل دولة عربية (أو إسلامية) اليوم مصرفًا وطنيًا[1].

5. [...] "لويس غارديه لفت في كتاب *"المدينة الإسلامية"* [2] إلى أن: "وحدة الطبيعة الإنسانية في المدينة الإسلامية ليست أساسَ المساواة السياسية بين المواطنين بشكل مباشر، إنّما هي الصفة المشتركة للمؤمن التي يمنحها الله لمَن وَفَى بعهده،

(1) يلاحظ أن وزراء مالية الدول الإسلامية أنشأوا في كانون الأوّل سنة 1973، في جدّة، "البنك الإسلامي للتنمية" الذي بلغ رأس ماله 1,2 مليار دولار.

(2) *La Cité musulmane*، 1954، ص. 102.

ومَن اختاره ليَفي بعهده [...] وبالتالي، وبعد أن زَرعت المدينة الإسلامية بذور النظام التعددي، ظهرت في البداية أقليات دينية مجزأة [...] وبذلك يُعدّ أساس الحرية قانونيًا، ولا تحدَّد العدالة من حيث موضوعها، بل من خلال تدابير غير موضوعية، تُلزِم الوفاء بالتزامات مثال وفاء يفرض نفسه لقيمة أصلية ومحترمة إلى أقصى حدّ. ومن خلال الانقطاع الجوهري نفسه، تمكّن العالم الإسلامي من تأخير تطبيق هذه المتطلبات الشاملة التي تفرض أن يعاني المسيحيون مشكلات على الصعيد السياسي والاجتماعي، على حدّ سواء. وبالطبع، تتمثل العناصر الأساسية لذلك بواجب التضامن، من خلال إيتاء الزكاة [...] [أو] تنظيم الأعمال الحِرَفية والتجارية الصغيرة في الهيئات القديمة ذات الطابع التعليمي التي اعتمدتها المدن الإسلامية التقليدية (لكنها لم تؤسّسها من دون شك)، ولم يعترض عليها أبدًا أيّ مسؤول، وأيّ رابطة عمّال، ولم ترفضها أيّ طبقة".

6. "أعمال جاك بيرك، ومقالاته المنشورة في مجلات، أو في كتبه[1]، تتميّز بين الدراسات التي أجراها "مستشرقون" أو

(1) مثال كتاب *"التاريخ الاجتماعي لقرية مصرية في القرن العشرين"*، 1957، *(Histoire sociale d'un village égyptien au XX^e siècle)*، أو *"العرب من الأمس إلى الغد"*، 1960، *(Les Arabes d'hier à demain)*، أو *"المغرب بين حربين"*، 1962، *(Le Maghreb entre deux guerres)*، أو *"مصر-الإمبريالية والثورة"*، 1967، *(L'Egypte, impérialisme et révolution)*.

باحثون عرب، على نحو متزايد، عن مجتمعاتهم. فقد سلّط بيرك الضوء على "التطوّرات الخاصة بكل نمط اجتماعي، وعلى إعادة تنظيمها بشكل متبادل". ولو اتفقنا معه (1967، ص. 695)، على أننا "نحتاج إلى وقائع"، فإنّ شهادة حامد عمار في أطروحته التي تحمل عنوان "التنشئة الاجتماعية في قرية مصرية"[1]، تقدّم وصفًا للواقع لا مثيل له. والأمر سيّان بالنسبة إلى كتاب جاك فوليرس "فلاحو سورية والشرق الأدنى"[2]، وأبحاث كل من علي الوردي عن المجتمع العراقي، وعبد الوهاب بوحديبة في تونس ("البحث عن معايير مفقودة"[3]، وفريق .C.E.R.E.S، وما صدر عن المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، ومؤلفات أو أطاريح أخرى كتبها عرب مشرقيون. علاوةً على ذلك، ركّز محمد سعيد العطار في كتاب "التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن" (الجزائر العاصمة، 1964) على استمرار الأسس القديمة بشكل خاص، وتحدّث عن ست طبقات اجتماعية تشمل الأرستقراطيين، وأصحاب الأراضي المهمّين، ومَن هم من سلالة رسول الله ﷺ أي السادة، وزعماء القبائل، والتجار والبائعين والحرفيين، والفلاحين (الذين شكّلوا 80 في المائة من السكان)، والعبيد، والأخدام، وهم "خلاسيون متحدّرون من شعب الأورومو في إثيوبيا

(1) *Growing up in an Egyptien village*, London, 1954.
(2) *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*, 1946.
(3) *A la recherche des normes perdues*, Tunis, 1973.

(galla-éthiopiens)". ويعتقد محمد سعيد العطار أنّ السادة والأخدام يشكّلون في الواقع "طبقات" حقيقية، ما يتعارض من دون شك مع "التيوقراطية المساواتية" للإسلام [...]".

7. "ينبغي التماس الفكر الاجتماعي الراهن ودراسته لدى العرب أنفسهم. ومما لا شك فيه، فمن أكثر الدراسات الصارمة (تجاههم وتجاه الآخرين) وأكثر "المقاربات" الاجتماعية المهمة، هي تلك التي قام بها بالتأكيد كل من المفكر المغربي المسلم عبد الله العروي (المولود عام 1933)، وأستاذ اللغة العربية والبروفسور في التاريخ، والمفكر القبطي المصري أنور عبد الملك (1924-2012)[1]. ويتمتّع الاثنان بفكر محفّز ومفيد، ويطرحان المشكلات ويسعيان إلى حلّها، معتمديَن على مبادئ الماركسية، على وجه خاص. ميولهما الماركسية لا تمنعه من استنباش انتماءاتهما الطائفية".

ومن كتاب عبد الله العروي *"الأيديولوجيا العربية المعاصرة"*[2]، نستبقي لهذا الفصل ما كتبه مكسيم رودنسون في تقديمه للكتاب: "هذا كتاب مرموق في صدقه ووضوحه". وفي فصل

(1) عضو في اللجنة التنفيذية للاتحاد العالمي لعلم الاجتماع، (ترأس فيه لجنة البحث الخاصة بالحركات الوطنية والإمبريالية) وعضو في الاتحاد العالمي لعلماء الاجتماع الناطقين بالفرنسية.

(2) *L'Idéologie arabe contemporaine*, Maspero, Paris, 1967.

يحمل عنوانًا معبّرًا، ألا وهو "حوادث مؤلمة لفلسفة الوضعية"[1]، يشرح العروي أنّ "الفكر العربي يبحث عن حقيقة موضوعية يفهمها العقل البشري في الطبيعة والمجتمع. يتّفق هذا الفكر في جميع مراحل تطوّره مع الغرب بشكل أساس، في ما يتعلّق بالهدف المحدّد للإنسان عبر التاريخ وبوسائل تحقيقه. [...] لكن إن كان الإسلام المعاصر يبحث عن الفلسفة الوضعية [...]، وإن كانت الطريقة أهمّ من السبب، فما الذي يدفع العرب إلى عدم تقبّل الفلسفة الوضعية الغربية عند تطبيقها في مجتمعاتهم؟ من الصحيح أنّ العالم والليبرالي والمحبّ للتكنولوجيا لا يقبلون الاستشراق بالسهولة التي يقبلون بها علوم الطبيعة". وانتقد الكاتب أيضًا توجهات العلماء أو المراقبين من غير العرب، على النحو التالي: "بَحَثَ مؤخرًا عن الحقيقة مجموعة مفكرين حافظوا على فكر لويس ماسينيون، وهو من أهمّ المستشرقين، وانشغلوا بالواقع العربي، ووصفوا ما كانوا يشعرون به بأمانة رائعة. [...]. ولم يكن الواقع العربي، بحد ذاته، الغاية من وصفهم، بل كان وسيلة للوصول إلى حقيقة أعمق. وليس بالإمكان أن نميَّز أيّ معنى أو دليل ذا صلة بالواقع العربي، فثمة أشكال قائمة منذ

(1) *Mésaventures du positivisme*, p. 117.

القدم، ارتبطت وتتابعت من دون ترتيب معيّن، وبرزت بشكل عشوائي أو وفق تصميم غير قابل للفهم. [...] (ص. 121). وتُعدّ أعمال لويس ماسينيون، بصراحة أم من دونها، أصدق وأروع ما ولّدته العلاقة التي تجمع أوروبا بالشرق العربي، لا بل تُعتبر الأقرب إلى قلوبنا. إلّا أنّها تميل، من دون أدنى شك، إلى حقبة من الثقافة الغربية" (ص. 123).

"وعلى الرغم من الإشادة بأعمال ماسينيون، يبدو أنّ ما قيل عنها يبقى ناقصًا (هذا أقلّ ما يمكن قوله)، إذ لم يُذكر التزام مَن أطلق عليه جاك بيرك لقب "الشيخ الرائع" بالقضايا المحقّة، مثال قضايا المغرب، مسقط رأس عبد الله العروي، في وقت فضّل فيه الكثير من الأساتذة الجامعيين الفرنسيين التحفّظ عن إبداء رأيهم [...]. وما اعتبره العروي "ازدواجية الضمير العربي" (ص. 131)، لا يبدو أنه غاب عن ذاكرة ماسينيون، الذي يشهد *"دليل العالم الإسلامي" (Annuaire du monde musulman)* و"مجلة العالم الإسلامي" (Revue du monde musulman)، على قلقه المستمر من الحاضر والمستقبل. فمثلًا، "أمام مشكلة اجتماعية أساسية مثال بُنية المجتمع، وبعد التمعّن فيها عن كثب، نلاحظ أن المقصود تنافس مجتمعات مغلقة لا صراع طبقات" (ص. 131). وميّز العروي بين طبقة المخزن (حكومة الملك)، والبرجوازية من

أصل أندلسي، والبرجوازية الصغيرة الأصلية، والفلاحين، وهي "وحدات اجتماعية" متقاربة نوعًا ما في خارجية كاملة" (ص. 132-131). وأضاف لاحقًا (ص. 150): "في هذا الصدد، لا نتذكر دائمًا أنّ أصل مصطلح طبقة يعود إلى العصور الوسطى، وأنّ أهمّ ما قدّمته الماركسية لم يكن إثبات أنّ هذه الطبقات قائمة بالفعل (ولطالما عُرف ذلك، وغالبًا ما بُرِرَ بوضوح)، بل تأكيد على أنّها تولد من جديد بأشكال مختلفة." وختم العروي بالقول (ص. 152): "لا تُعدّ الماركسية التي تلبّي متطلبات الفكر العربي بصورة منطقية من بين الأنظمة الفلسفية الغربية، بل هي بمثابة "نظام الأنظمة" [...] فكيف يمكن وصفها هذه وتصوّرها، بعد أن رُسمت خطوطها العريضة؟ هي في الواقع ماركسية موضوعية، بالمعنى الذي يهمنا هنا، أي تفرض نفسها على أنّها معرفة ضرورية لأيديولوجيات سائدة، في الأصل، في المجتمع العربي" (ص. 153). واستنتج أنّ "موقف الضمير العربي من الوضعية والماركسية مماثل، ومن الضروري اتّخاذ إجراءات. ويبدو في ظاهره موقفًا متناقضًا جدًّا: نعم للنظام، لا للنهج" (ص. 155).

"وعلى عكس ما توصّل إليه هذا المفكر المغربي، يساورنا أحيانًا شعور بالانزعاج بعد قراءة كتابين للمفكر المصـــري أنور عبد الملك، خصوصًا عندما هاجم ماسينيون (1962-1883) منتقدًا مواقفه المؤيّدة "للاستعمار" في المغرب

في ... سنة 1906 (ص. 86، الملاحظة 13) قائلًا: "لن يتمكن الشعور القوي من حجب طبيعة هذا الموضوع، فهي خاطئة إلى حدّ كبير ولها انعكاسات وخيمة" (ص. 86). وأظنّ أنّ هذه الملاحظة، التي تنفي صحّتها أعمال ماسينيون الهائلة، مجحفة وغير دقيقة تمامًا: "يساعد كل من دراسة اللغة العربية الفصحى، وتلك التي كانت تستعمل في العصور الوسطى، بالإضافة إلى دراسة التصوّف الإسلامي على التحدث عن ذلك، لا على فهم التباين بين أقسام البرجوازية المختلفة في أيّ بلد كان، ومشكلات الأدب العربي الواقعي بعد العام 1945 أو فهم أيديولوجيا مكوّنات الحركة الوطنية الديمقراطية المختلفة" (ص. 113). فلمَ لا يُهتمّ بأمرين متناقضين في آنٍ؟ فمن الممكن الاهتمام بماضي الإسلام والعالم العربي، وحاضرهما، ومستقبلهما، على غرار ما فعل ماسينيون وبيرك وآخرون، من دون أي نية منحرفة نوعًا ما. [...]".

8. "ثمة فصل خصّصه أنور عبد الملك "لتحوّلات البُنى الاجتماعية" (ص. 113-65) في مصر، في أطروحته المعنونة "الأيديولوجيا والنهضة الوطنية"[1] التي اقتصرت طوعًا على الفترة الممتدة من عام 1805 إلى عام 1892، أي من فترة تولّي محمد علي الحكم، وهو مؤسس مصر الحديثة إلى

(1) *Idéologie et renaissance nationale,* Paris, 1969.

"النهضة" الوطنية بعد عشر سنوات من الاحتلال البريطاني. وبالطبع، يُعدّ الفرق بين المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية اعتباطيًا[1]. "وبالتالي، اعتمدنا كثيرًا على علم الاجتماع، وهو علم وسيط بين العلوم الاجتماعية، بغية توضيح كل تحليل وكل تلخيص [...] في إطار علم الاجتماع المقارن للحضارات" (ص. 15). "واضطلعت عوامل داخلية معيّنة بدور أساس بطريقة متعبة ومتقاربة: لا وقت للقيادة العسكرية لتسلّم إدارة شؤون البلد إلى البرجوازية الأصلية المهيّئة، ولا تشكّل حتّى الآن الطبقة الحاكمة -بحد ذاتها- الأرستقراطية، ثم البرجوازية التي هي قيد التشكيل ومن أصل ريفي، مجموعةً متجانسةً ومندمجةً على صعيد العرق والثقافة، لا بل ينقصها الكثير لتصبح كذلك. وتعيش هذه الطبقات في معظمها بمنأى عن الشعب، وتحتقر الفلاحين، لكنّها تؤيّد في الوقت نفسه المشروع الوطني، ولا تفهم جيّدًا الطبقة السياسية، التي تتألّف من قادة وكوادر ومثقفين، الحاجة إلى فلسفة الثقافة الوطنية وإلى تصوّر للإنسان تحدثه هذه النهضة الوطنية المستمرة. فيدلّ ذلك عمومًا على عدم تطابق الهدف، ألا وهو

(1) يُذكر هذا الفرق في هذا الكتاب الذي يتمحور حول "الفكر العربي" لملاءمة نص يهدف إلى التثقيف و"تبسيط المعلومات، لا الحصول على آراء أصحاب الاختصاص.

مشروع النهضة الوطنية، مع المتطلبات التي يفرضها تحقيقه [...] بالإضافة إلى ذلك، تحدّث الكاتب المصري صبحي وحيدة عن فقر الدم، وهو ليس تعبيرًا مجازيًا، لا بل يدلّ في الواقع على البؤس الظاهر على فيزيولوجيا كل شخص في مصر، منذ نهاية السلالات الحاكمة الكبرى، الوطنية والفرعونية والإسلامية، الذي يقترن بعدم القدرة على الحكم الذاتي" (ص. 16).

9. "وبالكلام عن حركة "الإصلاح" المتجسّدة في مصر، والتي كان محمد عبده من أهمّ دعاتها حتّى وفاته في عام 1905، لاحظ أنور عبد الملك (1969، ص. 379) أنّ "مفهوم الأخلاق، على صعيد الفرد والمجموعة في آنٍ، هو مفصلي بين الفكر الديني، بحد ذاته، والفكر السياسي والاجتماعي. لكن المشكلة الأساسية تكمن هنا في القضاء والقدر وحرية الاختيار". ورأى أنه "منذ أن أُنزل القرآن الكريم، يهدي الله الإنسان إلى الطريق المستقيم" (ص. 382). ويجب على "المستبدّ العادل" أن يلجأ إلى الشورى. كما شدّد على "أهميّـة وحدة الفكر الاجتماعي ورؤية المجموعة المشتركة والتعاون. ويظهر هنا تأثير ابن خلدون الكبير، على الرغم من بعض الاختلافات" (ص. 394). "وفي الوقت نفسه، على صعيد التطوّر الاجتماعي، أكّد عبده أولوية التعليم والتثقيف، القادرَين وحدهما على بناء ضمير وطني قائم على الدين" (ص. 398). "أمّا بالنسبة إلى الشقّ الاقتصادي والاجتماعي،

فدعا إلى المضيّ باتجاه معتدل في إطار التقاليد، وذلك عبر معالجة عيوب المجتمع المصري المتمثلة بغياب الجديّة، والتأهيل الأخلاقي الناقص، وتعددّ الزوجات، والممارسات الدينية القديمة، وغياب روح الخدمة العامة، وإغفال الأفضال السابقة للمواطنين، وذهنية معاقبة المجرمين، وفساد الموظفين، إلخ" (ص. 399). وبما أنّه اعتقد أنّ "الايمان هو مصدر كل الحقائق، لا العلم أو العقل بجانبهما التأملي المنفصل عن كلام الله"، فقد أخطأ "بعض مفسري الكتب السماوية، عندما اعتبروه فيلسوفًا عقلانيًّا" (ص. 403). ويعتبر أنور عبد الملك الطهطاوي (من خلال كتاب *"مناهج الألباب"* الذي صدر سنة 1869) "الرائد الفعلي للاشتراكية في مصر" (ص. 407)، على الرغم من "عزلته النبوية، إذا صحّ التعبير" (ص. 418). ترى ألا يقصد *"بالجدوى* فيما يتعلق بالشرائع الدينية [...] جميع طرق الإحسان بهدف التضامن التي تنص عليها الشريعة، مثال الاقتراض والإقراض والتبرع والزكاة والوقف (المرتبط بالمؤسسات الخيرية) وأمور مشابهة، ما يستلزم الاعتياد على الأفكار المرتبطة بتنظيم كلّ ما هو مادي وذات الصلة بالوقت، والموافقة عليها" (ص. 410)؟ ألا يبيّن استغلال أصحاب الأراضي للعمّال؟ ألا يطالب في الواقع بالعدالة الاجتماعية؟ مع الأسف، "فكرته الأخيرة هي فكرة [...] إنسان وحيد" (ص. 415)".

خاتمة الكتاب

رصيد مونتاي المعرفي وكتاباته الموسومة بالجدة والدقة، ولغته الموصوفة بالسلاسة وحسن الإبانة عن المقاصد، والمستندة إلى معايناته الميدانية، شكلت مدخلًا ملائمًا كي نعرِّف القارئ العربي المهتم به، ليستزيد من أفكاره النيرة المتمحورة حول قضايا العرب ولغتهم وأحوال المسلمين في دنيا الانتشار. شواغله الفكرية وأطروحاته ونتاجاته الإبداعية استقطبت أصحاب التخصصات الدقيقة (الإنسانيات والثقافيات واللسانيات والأنثروبولوجيا). فوجدوا عنده ضالتهم، والإجابات الوافية على تساؤلاتهم، وخصوصًا ما يتصل بمجريات أبحاثهم التطبيقية، بالعودة إلى نتاجه العلمي البالغ ثلاثين مؤلَّفًا. كتب لوامع نُشرت بفرنسية مأنوسة، ووجد بعضها سبيلًا إلى التعريب: *"تقييدات حول إفني وأيت باعمران"* (تكنا) و*"الإسلام الأسود"*.

عقدُ وشائج معرفية بهذا المفكّر وبفكره ونهجه، والتمعّن في قراءة أعماله، تعنيان رؤية العالم العربي الإسلامي بعينَي مستعرِب مستنير وذي بصيرة. أفلح في وضع تجاربه العملية والعلمية، ومثلها معارفه الإنسانية والثقافية، بمعناها الأرحب، لصالح تعزيز سبل التواصل بين الشعوب، وعملًا بقاعدتي التشارك المعرفي والتفاعل الحضاري.

مؤلّفاته المستجدّة موضوعيًا *(الإسلام الأسود)*، والاستشرافية مقاربةً *(العربية الحديثة)*، والوجودية تبصرًا *(الفكر العربي)*، ترسَّمت بفطنةٍ خطًى معرفيةً كُتبت عليه. فمشاها في غضون عقودٍ ثلاثة، صرفها بين ظهراني العرب، مشارقةً ومغاربةً، وأشـركَ جمهورَ قرّائه في تذوق قطوفها الدانية. وهي في الوقت عينه ترجمت مجمل مشاغل رفاق درب المعرفة الشغوفين باكتشاف الشرق والعرب والعالم الإسلامي والقارة السوداء. ونعني ملهمه لويس ماسينيون، ورفيقي دربه جاك بيرك ومكسيم رودنسون، المعتبرين مع مونتاي "رباعي المستشرقين"[1]. مروحةُ تجاربهم العملية والعلمية اتسعت مدًى معرفيًا. فأفادت -وما تزال- طلابَ العلم الذين يرتادون جامعات فرنسا –والغرب- عربًا وعجمًا، وكاتب هذه السطور كان واحدًا منهم.

تشارك مونتاي والعديد منهم في الانصراف إلى متابعة تطور المحكيات العربية المعاصرة، واقتفاء أثر مقترضاتها ودخيلها. وما فاته، وفاتهم، الالتفات إلى رصد تأثيرها على تطور أساليب

---

(1) *Notes sur les Tekna*, Vincent Monteil, Paris, Larose – 1948
ترجمة هيبت الحرش، بعنوان *"تقييدات حول إفني أيت با عمران"*. الترجمة عرضها الإعلامي محمد عالي الحرشي، بتاريخ 2013/8/18، على "قناة محمد عالي التعليمية التربوية" في برنامج "قراءة في كتاب"، وأورد فيها هذه المعلومة، نقلًا عن "يوميات الهدهد الطليق" لمحمد خير الدين.
تاريخ المشاهدة 2020/5/17. www.alkutubiconicretouch.com

الكتابة والتعبير والتخاطب. الجواب عنده ما تأخر، فكانت *"العربية الحديثة"* التي درست وعرضت لكل هذه الظواهر التي بدأت تتسرب تدريجيًا إلى نسيج الضاد. والحالة هذه ليس بالإمكان التغاضي عن أبحاث وأعمال مثل هؤلاء الإعلام الكبار، الذين افتتنوا بالضاد، وأقبلوا عليها درسًا وتمحيصًا وبحثًا وتأليفًا. نذكر منهم على سبيل المثال: ريجيس بلاشير وجان كانتينو والأب هنري فليش وأدريان برتيلمي[1]، وفانسان مونتاي والمونسنيور ميشال الفغالي أستاذ اللغة العربية في معهد بوردو للمستعمرات[2] الذي له في لهجة شمال لبنان المارونية (بشمزين) دروسٌ قيمة أكسبته شهرة بين المستشرقين[3].

إقاماته المتنوعة في المدن والصحراء، مكّنته من أن يتقبل -برحابة صدرٍ- كلَّ نمطِ حياةٍ عاشه، ويتفاعل مع كلِّ هويةٍ مختلفة عرفها. أما شخصيته الإنثروبولوجية الجادة والواعدة، منطلقاتٍ نظرية وتطبيقاتٍ ميدانية، فتظهّرت عبر انصرافه إلى دراسة أحوال الصحراء الغربية التي خدم في أنحائها. فأصدر أربعة كتب، تناولت: *"التكنا"* (1948)، *"نباتات الصحراء الغربية"* (1949-1953)،

---

(1) Adrien Barthélémy, *Dictionnaire arabe-français: Dialectes de Syrie: Alep, Damas, Liban-Jérusalem* (Paris: P. Geuthner, 1935).

(2) Michel Feghali, *Contes, légendes, coutumes populaires du Liban et de Syrie*, Texte arabe, transcription, traduction et notes, Préface de M. Albert Cuny (Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient, 1935).

(3) تنظر مقدمة أنيس فريحة لكتابه *"معجم الألفاظ العامية"*، (بيروت: مكتبة لبنان، 1973)، ص "أ".

"حيوانات الصحراء الغربية" (1951)، و*"جمل الصحراء الغربية"* (1952). وكان يعرض لمعلمه ماسينيون، بشكل منتظم، وقائعَ رحلاته الصحراوية على ظهر الجمل في جنوب المغرب، ويطلعه على تحقيقاته الإثنوغرافية حول القبائل العربية – البربرية والمحكيات المحلية.

هذه الحصيلة المعرفية المصطفاة من نتاجاته، أسعفتنا على التبصّر أكثر فأكثر، في مسارنا الفكري، مثلما في معمَّيات كنوزنا اللغوية والأدبية والشعبية. كما أعانتنا على تجديد النظر إلى صفحات وضاءة من حضارتنا العربية الإسلامية. وهذه، لعمري، مقاصد عمليات التثاقف والتواصل والتشارك المعرفي وخواصها. والكتاب الذي بين أيدينا نموذج عنها، على ما نطمح.

الاطلاع على جملة الدراسات والمقالات والكتب المنشورة عنه، أو تلك الصادرة بتوقيعه، من شأنهما تعريف القارئ العادي إلى هذه الشخصية الفكرية المرموقة. ولا يسعنا قرّاءً وباحثين ومؤلِّفين، إلا أن نثمّن أسلوبه العلمي ولغته السلسة واستشهاداته الموثقة والشديدة التمثيل والتنوع، ونثني على سعة اطلاعه وموسوعيته، فننظر بعين الإعجاب والرضا إلى نهجه المتّبع لجمع المعطيات الميدانية الخصبة، وإخضاعها للتثبت والدرس، فالتفكيك والتحليل. فهي أفلحت مجتمعةً في إجلاء صورته، رحّالةً مغامرًا، ومستعربًا أصيلًا، وكاتبًا مبدعًا، وباحثًا رصينًا.

ثبت بالمواقع الشبكية التي تخصه أو تتعلق به

Vincent-Mansour Monteil, un maître de l'École française d'islamologie, Le Monde, le 03 mars 2005, par Malek Chebel, anthropologue.

https://oumma.com/vincent-mansour-monteil-1913-2005-le-dernier-des-grands-orientalistes-francais/

Malek Chebel : Vincent-Mansour Monteil, savant lumineux et discret, jeune Afrique Mar 22, 2005

https://www.persee.fr/doc/thlou_0080-2654_1989_num_20_2_2372_t1_0253_0000_2

"les mythes fondateurs de l'antisémitisme; de l'antiquité à nos jours" by Carol lancu, Paperback, 189 Pages, Published 2003. P. 40.

https://www.gettextbooks.com/isbn/9782708908062.

قراءة في كتاب // تقييدات حول إفني وأيت بعمران// فانسان مونتاي

https://www.youtube.com

https://machahid.info/100082.

Html www.souss 24.com

الموقع المغربي. 2013/8/18. تاريخ الزيارة 2020/5/17.

https://www.lamaisonislamochretienne.com/vincent